ميلاد أسطورة
جديدة عملاقة

طاقة الكونداليني

(ثعبان الحياة)

أخيراً تفرغت لكتابة مقالى بعد عودتى إلى باريس وطوال أشهر عديدة لم يكن لى حديث إلا عن الموت والاحتضار.. وتوقعت أن يعزف الكثيرون عنى ولكن كانت المفاجأة أن بعض الأصدقاء اعترفوا لى بأنهم أو بعض أقاربهم قد مروا بتجربة الاقتراب من الموت.

مرت ثلاثة أعوام تطورت خلالها «إياندس» فى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى لتصبح مؤسسة ضخمة تضم عشرات الباحثين، وفى عام ١٩٨٢ أصبحت تجربة (إن. دى. آى) ظاهرة معترف بها بفضل جهود العديد من العلماء والباحثين ومنهم «جورج جالوب الابن» وريث أشهر مؤسسة استفتاء فى العالم والذى قام باستفتاء ضخم عبر الولايات المتحدة ليعرف عدد الأشخاص الذين تعرضوا لهذه التجربة. وكانت النتيجة غير المتوقعة أن ثمانية مليون أمريكى عايشوا ولو جزءًا صغيرًا من هذه التجربة الغريبة.

نُشرت تفاصيل هذا الاستفتاء فى كتاب بعنوان «مغامرات الحياة الثانية» أصدرته دار نشر ماكجرو هيل فى نيويورك عام ١٩٨٢ ، وقد أذهلت هذه النتيجة الجميع حتى الباحثين فى مؤسسة «إياندس» وأكدت الوجود الفعلى لظاهرة «إن. دى. آى»، رغم اختلاف الآراء حولها بعد أن مر بالتجربة ملايين الأشخاص.

كانت دراسات سابوم ورينج وافية ولكنها عامة نسبياً.. وعندما بدأ التخصص تشعبت «إياندس» إلى أقسام مختلفة يدرس كل منها جزءاً خاصاً: «الخروج من الجسد» أو «النفق» أو «اللقاء مع الموتى» أو «رؤية الحياة من جديد» أو «التحول الغريب فى معتقدات الفرد بعد التجربة».

وقد تخصص بروس جريسون وهو طبيب نفسي وشاب واعد من ولاية ميتشيجان في دراسة حالات الانتحار الفاشلة.. وبدأت التخصصات المختلفة تدس أنفها في دراسة الظاهرة الغريبة مثل الفلاسفة والعسكريون المسئولون عن قسم علم النفس في وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون).. وذلك بخلاف القسم الاجتماعي في «إياندس» الذى تشرف عليه مادلين بوردورجيل مديرة مدرسة الممرضات بجامعة كونكتيكات ويهتم بمساعدة صاحب تجربة «إن. دى. آى» في التكيف ثانية مع الحياة الدنيا والاندماج مع المحيطين به.

اعتقد كين رينج أن كتابه «الحياة لحظة الموت» سيكون الأول والأخير حول تجربة «إن. دى. آى» على الأقل في الوقت الحاضر بعد أن بذل الكثير من الجهد في دراسته لهذا الموضوع، فقرر الاستمتاع بحياته في هدوء لفترة مع صديقته الجديدة «نورما» في منزلهما الخشبي المطل على البحيرة.

ولكن ظهور الكتاب أحدث ضجة كبرى جعلت دار النشر التى أصدرته تنظم المحاضرات والمؤتمرات حول هذا الموضوع، ودعت العديد من قنوات التليفزيون رينج للتحدث في برامج جماهيرية.. وكان التلفزيون الأمريكى يعلن بصورة غريبة عن هذا الحدث مستخدماً عبارات رنانة مثل:

«كين رينج وأصدقاؤه الناجون يقصون رحلتهم العجيبة إلى طاقة النور الباهر».. إنها الطريقة الأمريكية الصارخة التى لاتستطيع المجتمعات الأخرى تقليدها سواء كان ذلك في أفريقيا أو البرازيل أو الاتحاد السوفيتى.

وانهالت الخطابات على رينج ليس فقط من أشخاص متعطشين لمعرفة المزيد عن هذه الظاهرة ولكن أيضا من مئات مروا بالتجربة وأرادوا التعبير عن مشاهداتهم، بل إن بعض أصحاب التجربة جاءوا من أماكن بعيدة للقاء رينج في جامعة ستورز، كان أحدهم شاباً صغيراً توقف خصيصاً أثناء رحلته في كاليفورنيا للقاء رينج ومكث بمنزله خمسة عشر يوماً ثم رحل ليجيء بعده فرد آخر ثم اثنان معاً وهكذا دواليك.

كانت هذه اللقاءات تشابه قصة فيلم «لقاء مع الجنس الثالث» الذى أشرنا إليه من قبل، وتعددت اللقاءات حتى بدأ رينج ونورما يضجان من كثرتها فنادراً ماكانت تمر إحدى الأمسيات دون أن يكون ضيفهما على العشاء أحد الناجين من الموت، وأصبحت جميع أحاديثهما تدور حول هذا الموضوع واكتشف رينج ونورما أن منزلهما أصبح ملقباً «بفندق الاقتراب من الموت»!. فهما يستقبلان به عشرات الزبائن حتى أن باحثة شابة من شيلى تدعى «ماريا» متخصصة فى علم النفس الاجتماعى جاءت لتقيم معهما بصفة دائمة.

كانت ماريا قد بدأت دراستها لحالات «إن. دى. آى» فى أسبانيا (أثناء نفيها هناك) ثم تحمست لفكرة العمل مع رينج والاستفادة من خبرته فى هذا المجال.

كان أمامها هدف محدد هو دراسة حالة العائدين الذين لم تطبع التجربة فى أذهانهم أى ذكريات.. هؤلاء الذين كادوا يموتون دون أن يستفيدوا من التجربة.. إنهم سيئو الحظ ! هل نسوا ببساطة ما حدث لهم؟ إنه سؤال دقيق تحتاج الإجابة عليه إلى بحث طويل.

أعجب رينج بماريا من بعيد.. كان يشعر بالملل ويتمنى الاستقرار فى حياته. واكتشف رينج أثناء استقباله لأصحاب التجربة ومعايشته لهم فى طعامهم ونومهم وضحكاتهم ودموعهم أن الذين تعمقوا فى التجربة وبلغوا المرحلة الخامسة يتمتعون بقوة وحيوية لم يعرفوها من قبل ويدعونِ أن هذا النشاط طرأ عليهم بعد التجربة مباشرة.. واحتار رينج كيف يفسر هذا التغيير.. هل تؤثر «إن. دى. آى» فى خلايا جسم الإنسان وتمارس بذلك دوراً بيولوجياً مجهولاً تقوم به جسور نفسية بدنية لم يتوصل إليها العلم بعد؟.

فى ربيع ١٩٨٠ قرر رينج بعد تعمقه فى بحث هذه الظاهرة لفترة طويلة أن يكرس جهوده المستقبلية لدراسة الأشخاص أنفسهم.. هؤلاء البشر الذين

يمثلون الجزء الحى من التجربة.. لابد من الاقتراب منهم وتحليل تصرفاتهم وبالتحديد الإنصات لهم وملاحظة التغير فى حياتهم الحالية.

عاد رينج إلى ملفات مؤسسة «إيانذس» التى تكتظ يوماً بعد يوم بنتائج الباحثين.. ووضع قائمة محددة بأسماء الأشخاص الذين بلغوا المرحليتن الرابعة والخامسة فى تجربة «إن. دى. آى.» (هؤلاء الذين رأوا النور الباهر والذين ذابوا بداخله) وتضمنت القائمة سبعين حالة.. اختار رينج من بينها ستة وعشرين فقط ليتعمق فى دراستها ودفعه شبه الإجماع فى إجاباتهم للبحث عن معنى تلك التجربة .

كانت هذه النظرة الجديدة لطبيعة التجربة تتطلب معرفة الحياة اليومية لأصحاب الرؤى، ومن حسن حظ رينج أنه لم يكن وحده، فقد عاونته نورما كمديرة لفندق «الاقتراب من الموت» بدرجة كبيرة، وقد أهداها رينج مقدمة كتابه الثانى «الطريق إلى أومجا» (النهاية) قبل أن ينفصلا.

سجل رينج فى هذا الكتاب أن أصحاب التجربة الذين بلغوا المرحلة الخامسة قد حدث لهم تغير رباعى: (جسمانى وعاطفى وفكرى وروحانى) أو بمعنى آخر حدثت لهم طفرة شاملة تجاوز فيها الواقع الخيال.

من المفارقات الغريبة أن يكون تأثير«إن. دى، آى» فى البداية عادة سلبياً.. فالعائد الذى يمتلئ صدره حبا للحياة يجد صعوبة بعد عودته فى التأقلم مع عالم البشر فيسبب مضايقات لمن حوله ويصبح شخصاً مزعجاً يتضرر الجميع من سلوكه. إنه يُصدم إزاء أى علاقات إنسانية اجتماعية مترابطة بل يراها فجة حتى أن بعضهم لم يعد يطيق برامج التليفزيون ويصاب بالغثيان كلما شاهدها فيقوم بإغلاق الجهاز مما يثير غضب أطفاله ومن حوله.

إنه يرى كماً لا مبرر له من العنف الزائد والمستمر فى الأفلام والمسلسلات التليفزيونية، وقد علق أحد أصحاب الرؤى على ذلك بقوله:

«لا يوجد أى سبب فى العالم لعرض مشاهد يقتل فيها الناس بعضهم البعض». إن العائد يصبح مجرد شخص منطوٍ يغلق على نفسه أبواب حجرته أياماً كاملة رافضاً كل شىء حوله.

إن الاندماج مع الآخرين فى الحياة الأرضية قد يستغرق عدة شهور حتى يحدث التقبل لعالم البشر، ومعه الهدوء والسكينة اللذان يمثلان الاستسلام للواقع. وقد حاولت إحدى السيدات أن تحكى تجربتها الغريبة لزوجها، وتقبل الزوج الأمر فى البداية على أنه لعبة ولكن عندما صارحته أنها كانت تتمنى لو ضحت بأى شىء لتبقى هناك فى صورتها الأخرى. تألم الزوج من كلامها فتجنبت الحديث فى هذا الموضوع لسنوات طويلة.

رغم المصاعب الأولية التى تواجه أصحاب التجربة إلا أنهم يلاحظون بعد ذلك (والحديث هنا عمن بلغوا المرحلة الخامسة) أن أمراضهم العصبية وعقدهم النفسية قد اختفت.. فالشخص الخجول يفقد رهبته من الناس ولا يخشى إقامة علاقات اجتماعية.. و «الماسوشيست» الذى يهوى تعذيب نفسه يجد أنه قد أصبح فى حالة حب وتصالح معها،ويتذكر دون مرارة الأحداث التى تسببت فى معاناته، كذلك تنزل السكينة على الأشخاص العصبيين والعدوانيين، وينشط هؤلاء الذين كان الفتور واللامبالاة يغلبان على سلوكياتهم.

باختصار.. يحدث التحول فى حياة الجميع (جميع الحالات) فى نفس الاتجاه وهو أن يكتشف الشخص كيانه الحقيقى ويتقبله ولكن من خلال سيناريوهات مختلفة.

بربارا.. ابنة مُزارع فى الغرب الأمريكى.. متزوجة وأم لثلاثة أطفال تعانى من عقدة البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) وتشعر أنها منبوذة من الجميع.. لذلك فهى لا تقوم بالمبادرة بأى فعل. فى سن الثلاثين تعرضت بربارا لحادث تسبب فى كسر عمودها الفقرى وكاد يودى بحياتها، وقد بلغت المرحلة الخامسة فى غيبوبة الحادث فرأت حياتها تُسترجع أمام عينيها وبالذات مشهد محدد

كانت خلاله صغيرة وانقض عليها والداها وهما يصرخان فيها وأوسعاها ضرباً، لأنها تبولت على نفسها فى الفراش.

استعادت بربارا هذا المشهد بأكمله.. ورأت نفسها خلاله تمثل جميع الشخصيات: الأب والأم والطفلة. واكتشفت أن تعاستها الحالية ترجع جذورها إلى ذلك الموقف.. ولكن رؤيتها الجديدة لهذا المشهد كانت بدون تحيز للطفلة أوكراهية للأب والأم.. لقد تفهمت مشاعر الطرفين وشعرت فجأة أن عقدتها وإحساسها بأنها منبوذة قد تلاشت بعد نجاتها من الحادث.. واعتذرت بربارا لنفسها ولوالديها وقالت:

«لقد كنت أشبه بمن يفتح الشباك فجأة ليرى النور الذى كان مختفياً خلفه.. لقد كنا ضحايا موقف ظل يتضخم بداخلى حتى طغى علينا وأقام جداراً عالياً بيننا».

وسأل رينج المرأة الشابة عن المشاهد الأخرى التى مرت بها فقالت إنها رأت أجزاء متتابعة من حياتها ولكن اكتشافها لسر عقدتها فى الموقف السابق طغى على بقية المشاهد، ووضع الأمور فى نصابها وهكذا شفيت بسرعة البرق وعندما كانت ترغب فى التوقف عند حدث هام فى حياتها سلبياً كان أم إيجابياً كانت تستطيع ذلك ولو أن الأحداث أصبحت كلها عادية خلال رؤيتها الجديدة للأمور.. لم تعد سلبية أو إيجابية وإنما مجرد استعراض لذكريات حياتها السابقة.

أخيراً.. تخلصت بربارا من إحساسها المدمر بالشقاء والتعاسة وتعجبت من رغبتها الشديدة فى الحياة والقدرة على المقاومة.

تقول بربارا: «حتى الآن كنت أحاول إخفاء شخصيتى الحقيقية لأننى اعتقدت دائما أنها كريهة.. وعندما كان أحدهم يعاملنى بلطف أو يقول لى كلاماً رقيقاً كنت أقول لنفسى إنه لا يعرف شخصيتى الحقيقية، ولكن بعد الحادث الذى تعرضت له.. أدركت أننى لست سيئة ولابد أن أتصرف بطبيعتى

بمنتهى البساطة والتلقائية.. لقد تغيرت تماماً وللأبد، ولم يكن ذلك بالأمر الهين لأن أهلى والمحيطين بى كانوا يعوقون هذا التغير، لا أدرى لماذا، وقد احتجت سبع سنوات من الكفاح لإثبات شخصيتى الجديدة الحقيقية».

إن استعادة الشخصية قد تأخذ أبعاداً مختلفة مثلما حدث فى حالة «أنجيل» الجميلة.. لقد تركها والداها وعمرها سبعة شهور وتبنتها عائلة قامت بتنشئتها بصورة جامدة وتقليدية جافة.. وفى سن الثامنة عرفت أنجيل من إحدى صديقاتها فى المدرسة أنها ليست ابنة هذه العائلة التى تعيش فى كنفها، فاعترفت لها الأم فى حرج وكانت تلك نقطة فاصلة فى حياة أنجيل، فلم تعد كما كانت وكأن الدنيا من حولها قامت ولم تهدأ، ونشأت الطفلة منطوية على نفسها جبانة، تخشى كل شىء، وغير قادرة على الاستمتاع بالحياة، ولكنها لجمالها الباهر تزوجت من ثرى أمريكى من نيويورك، وأنجبت منه خمسة أطفال، وبرغم ذلك فقد عاشت حياتها فى اكتئاب دائم.

ذات يوم أُصيبت أنجيل بمرض خطير فى الكلى واقتربت من حافة الموت. وفى إحدى الليالى شاهدت رؤيا غريبة فقد تراءت لها كلمة عبرية بارزة فى قاع مظلم، وعرفت فيما بعد أن هذه الكلمة العجيبة تعنى «وراء نقطة التلاشى»، وازدادت حالة أنجيل سوءاً، وذهبت فى غيبوبة تعرضت خلالها لتجربة «إن. دى. آى» قوية تحول فيها النور الباهر إلى مدينة من الكريستال تسحر الألباب واقترب منها كائن «نورانى».

تقول أنجيل: «فى البداية لم أر سوى قدمى هذا الكائن، كانتا حافيتين وجريحتين.. ولكنى عندما رفعت رأسى تدريجيا رأيته كاملاً. لقد كان له وجهان أحدهما ينطق بالسلام والجمال، والآخر يُظهر المعاناة الشديدة».

نقل هذا الكائن النورانى لأنجيل من خلال توارد الخواطر الكثير من المعلومات لقد عرفت منه أن الحياة لا تتوقف عند الموت الجسمانى، وأن هناك مستويات أدق وأقرب للحقيقة لابد أن يعرفها بنو البشر من جديد.

وأنها قبل أن تُرْسل إلى ذلك العالم الجديد، عليها أن تعرف أنها ستولد يهودية وأنها لابد لها من العثور على عائلتها الأصلية حتى تستطيع أن تكمل طريقها. وتعجبت أنجيل، فلم يحدثها أحد عن شيء من هذا القبيل.

بعد الشفاء شعرت المرأة الشابة بقوة غريبة تحركها للبحث عن عائلتها اليهودية المُفترضة.. وتصور زوجها أنها أصيبت بالجنون ورجاها أن تتوقف عن الانسياق وراء هذا السراب، ولكنها لم تعد تهتم بآراء الآخرين، وحاولت أنجيل اتباع الطرق الإدارية الرسمية للعثور على عائلتها ففشلت، ثم قادتها عدة صدف متكررة إلى غايتها.. فقد علمت عن طريق أحد الأشخاص بوجود صحفي ضليع فى علم الأنساب فسافرت إليه فى الجنوب القديم، وهناك استطاع التعرف على هيئتها المتميزة فور رؤيتها، وأرشدها إلى طريق جدها الذى انتقل إلى فلوريدا.

كانت مصادفة غير متوقعة استقبل خلالها الجد حفيدته بحفاوة بالغة وتعرف عليها على الفور فقد كانت تشبه أخاها إلى حد كبير، وتعرفت أنجيل لأول مرة على وجوه والديها من خلال صور ألبوم جدها، وعندما علمت بإقامة عائلتها فى تكساس، أسرعت للقائها بعد طول حرمان، ولكنها صدمت لتبلد وبرودة مشاعرهم، وخاصة الأم التى لم تكلف نفسها حتى عناء الابتسام فى وجه الابنة التى طال غيابها.

عادت أنجيل إلى نيويورك محبطة، ولكنها اكتشفت فجأة أن الشعور بالحسرة والمرارة الذى صاحبها طوال حياتها، قد تبدل بإحساس النشوة. حتى والدتها التى لم تحبها أبداً، ولفظتها فى سن سبعة شهور لم تحنق عليها، وإنما اعتبرت نفسها هى المسئولة عن تلك القطيعة، ثم خضعت دون مقاومة لرغبة والديها بالتبنى فى اعتناق المذهب البروتستانتى وكأنها تعاقب نفسها.

وعرفت أنجيل طريق الحقيقة.

خلال بضعة شهور تحولت السيدة المكتئبة القلقة على نفسها إلى امرأة حرة.. لم تكن المقاومة سهلة.. حصلت أنجيل على الطلاق واعتنقت الديانة اليهودية وشقت طريقها كامرأة عاملة، فعملت بالبيت الأبيض كأخصائية فى التبنى فى قسم مساعدة الأطفال.

فى زيارتى الأخيرة للولايات المتحدة.. كانت أنجيل تؤلف كتاباً عن تجربتها أعدت له عنوان «وراء نقطة التلاشى».. وكان محور الكتاب يدور حول ذلك الكائن النورانى ذى القدمين الجريحتين الذى ظهر لأنجيل واعتبرت أنه المسيح، ولكن كيف يتفق ذلك مع ديانتها الجديدة.. اليهودية؟ لا أحد يعلم، ولكن كان لابد لها من العودة للجذور التى نشأت عليها حتى يتم شفاؤها.

إن اتباع مسار حياة أنجيل يؤكد حدوث ذلك التغير الرباعى فى حياتها: جسمانيًا وعاطفيًا وفكريًا، وروحانيًا، ولكنه من الصعب وقد يكون من المستحيل أن نميز هذه التغيرات كل على حدة.

كان رينج يركز فى أبحاثه على دراسة التغير الجسمانى الذى يؤدى إلى إقبال حالات «إن. دى. آى» على الحياة بصورة غريبة، ويذكر رينج حالة امرأة عاقر كانت تعانى من غرغرينة شديدة فى أمعائها مالبثت أن زالت بعد فترة احتضار طويلة.. ذات يوم أفاقت السيدة من غيبوبتها وطلبت الطعام بعد أن شعرت بأن شهيتها مفتوحة، وذُهل الأطباء من إصرار السيدة على تناول وجبة كاملة، واعترضوا مقررين لها نظاماً غذائياً قاسياً، فهى بدون معدة كما أن أمعاءها قد تلفت تماماً! وحدث بطريق الخطأ أن أدخل أحدهم إلى غرفة السيدة وجبة دسمة فأقبلت عليها بشراهة.. وتوقع الجميع لها الموت، ولكن كانت المفاجأة مذهلة عندما تحسنت صحة السيدة، وغادرت المستشفى بعد قليل، وعادت لحياتها الطبيعية.. ثم وجدت نفسها حاملا، أما بطنها فلم تعد فاسدة كما كانت من قبل، وإنما بدت وكأن خلاياها تجددت ثانية.. لقد

فتحت تجربة «إن. دى. آى» صفحة ثانية فى حياة هذه السيدة وكتبت لها عمراً ثانياً.

• ولمن يريد التأكد من هذه القصة الغريبة فإن السيدة تدعى «بيتى مالز» ومرت بتجربة «إن. دى. آى» صباح أحد أيام يوليو ١٩٥٩ بولاية إنديانا فى مستشفى «يونيون هوسبيتال».

وعندما حاول رينج التوصل إلى الأسباب البيولوجية، التى أدت إلى إحياء خلايا هذه السيدة، وجد أنه لا يستطيع أن يعزل الجانب العاطفى. فكلنا نعلم أن السعداء أكثر استعداداً للشفاء من التعساء، وبالتالى فإن أصحاب التجربة الذين فقدوا رهبة مواجهة مواقف الحياة، أصبحوا أكثر قدرة على السعادة والاستمتاع بحياتهم وأيضاً أكثر شراسة فى مقاومة المرض.

وعندما سُئل الأطباء المعالجون عن هذه الحالات، أكدوا أنهم شاهدوا حالات شفاء خارقة، لا يمكن إخضاعها لاية مقاييس علمية.. فالعلم لازال عاجزاً أمام معجزات القدر.

ركز رينج فى أبحاثه الجديدة على أربعة عوامل مختلفة هى:

روايات الناجين من الموت، والسجل الطبى عن حالتهم الصحية، وإجاباتهم على مجموعة من الأسئلة، وأخيراً أقوال المقربين منهم، (لمعرفة هل حدث تغير حقيقى فى شخصياتهم أم أنهم يتوهمون ذلك فقط؟). عندما وصل رينج لدراسة الحالة السادسة والعشرين تأكد أن تجربة إن. دى. آى، تسبب بالفعل انقلاباً شاملاً فى معتقدات وأفكار الشخص الذى يمر بها.

يكتشف أصحاب التجربة أن جزءاً كبيراً من سلوكياتهم خلال حياتهم السابقة، كانت مفروضة عليهم بسبب الخوف من آراء الآخرين. أما الآن فقد اختفت من حياتهم بعض الأمراض «الطفولية»، مثل الرغبة فى الظهور بصورة حسنة أمام الناس، والبحث عن الشهرة والخوف من سخرية الغير. وقد زال

عنهم بعد التجربة تعلقهم الشديد بالأشياء المادية، بعد أن اكتشفوا أنها المصدر الحقيقى للقلق، الذى يخيم على المجتمعات الحديثة.

وفى المقابل.. اكتسبت بعض المعايير لديهم قيمة جديدة مثل القدرة على الاستمتاع بالحياة.. فعبارة «لم أعد أشعر أبداً بالضجر» كانت تتكرر دائماً على لسان الذين بلغوا المرحلة الخامسة، إنهم يزعمون خروجهم من التجربة بشكل جديد، وكأن حواسهم الخمسة قد اغتسلت تماماً. لقد أصبحوا أكثر اهتماماً بالطبيعة.. بالألوان والروائح والظلال.. وأيضا بالتفاصيل الدقيقة بعد أن اكتشفوا أهمية تفاصيل الحياة اليومية التى تمر عادة دون أن يلحظها أحد.

ومع إقبالهم على الحياة زاد اهتمامهم بالآخرين، وكأنهم يحملون بين ضلوعهم خليطاً مركباً من الصبر والتسامح والعطف والتفهم والرحمة والرعاية.

تقول امرأة عجوز: «إنه أمر خارج عن إرادتى.. إننى أحب معظم الأشخاص الذين ألتقى بهم وكأنهم أصدقاء أعزاء، إننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من عناق وتقبيل كل من يدخل منزلى حتى الأغراب.. الذين يبدون الدهشة لسلوكى المفاجىء».

وتقول سيدة أخرى أقل سنا: «منذ تجربتى وانا أقوم بحل أى مشكلة زوجية أو عائلية فى الحى.. إن الجميع يأتون لاستشارتى لأننى لا أفقد أعصابى أبداً، وأستطيع أن أرى الألم والحقيقة فى عيون من حولى».

ويقول ملاكم قديم: إن الناس يسببون الآلام لبعضهم لأنهم لا يفهمون أن أهم شىء فى الدنيا، هو علاقتنا بالآخرين، فالحب هو الحل الشافى لجميع أمورنا».

وهنا أيضا يكاد يكون الفصل مستحيلاً بين التحولات المختلفة فى حياة أصحاب التجربة، سواء كانت جسمانية أو عاطفية أو أخلاقية. ولكن الشىء الذى أجمعوا عليه هو أن وجودهم قد أصبح له معنى.. وأن حياة روحانية

بدأت تصحو فى أعماقهم فى صورة تعطش لعالم الروحانيات، واهتمام بالعلوم الدينية عامة والتقاليد والطقوس الروحانية.

إنهم لا يقبلون على الإنجيل أو التوراة بقدر ما يهتمون بمغزى الأديان وقدرتها على السمو بروح الإنسان وعقله، أما عملية البعث بعد الموت فأصبحت حقيقة ثابتة لمعظم الذين بلغوا المرحلة الخامسة، ولكن إنسان العصر الحديث غير قادر على استيعاب معنى هذه الحقيقة. وهكذا تنقلهم هذه الثورة الشاملة فى حياتهم، إلى مرحلة جديدة من الوعى والإدراك.

إن محاولة فهم ما يدور فى خلد هؤلاء الأشخاص، كان بالنسبة للعلماء أشبه باقتحام مغارة «على بابا»، ولذا كان الحذر واجباً من الانسياق وراء أى صور أو معلومات خادعة.

أبدى ٧٥٪ من أصحاب التجربة الذين بلغوا المرحلة الخامسة مواهب وملكات غير عادية، بعد رحلتهم داخل طاقة النور الباهرة، فبعضهم أصبح يشفى المرضى بلمسة من يديه، وآخرون يتنبئون بحدوث الأمراض قبل الإصابة بها، وغيرهم يستطيعون معرفة ما يدور فى خلد الآخرين!

كان رايموند مودى قد دعا رينج منذ سنوات لدراسة هذه الظاهرة الغريبة التى أسماها «رؤية التنبؤات».. فبعض الناجين يتنبئون بالمستقبل حتى أن حياتهم اليومية أصبحت مرئية أمامهم بكافة تفاصيلها مقدماً، فعندما يدق جرس التليفون أو الباب يستطيعون معرفة من الطارق أو المتحدث. وقد صارحت إحدى السيدات مودى بأنها شعرت بسعادة بالغة عندما وجدت نفسها ذات يوم مثل أى شخص عادى لا تستطيع معرفة الطارق على باب منزلها.

دأب رينج فى البداية على تجاهل هذه المواهب الخارقة التى طالما أثارت اهتمام رايموند مودى، ولكن بمرور الوقت اكتشف أنه لابد من وضع هذه الظاهرة فى الاعتبار.. فأطلق على هذه التنبؤات اسم «الرؤية المستقبلية».

أقحم رينج نفسه فى دراسة الظاهرة ولم يعد قادراً على التراجع.. وكاد يصاب بالجنون من كثرة التفكير والتساؤل حتى جاء اليوم الذى تلقى فيه من خلال بريده رسالة غيرت مجرى كل شىء.

كانت الرسالة من امرأة تحكى فى عشرين ورقة تجربتها الخاصة التى تشبه تماماً بلوغ المرحلة الخامسة فى «إن. دى. آى» حتى فى التحولات الجذرية التى شهدتها حياتها. كتبت السيدة تقول إنها ترى نفسها حاليًا بصورة أفضل وأن خوفها من الموت قد زال تماماً.. وأن رؤية أى منظر طبيعى مثل شجرة أو ضفدعة يبهرها لساعات طويلة، لقد اكتشفت السيدة التى لم تكن تعتنق ديانة محددة أنها أصبحت متعطشة للدين والروحانيات وللمعرفة بوجه عام. إن هدفها الجديد فى الحياة هو إقامة علاقات مع الآخرين ومساعدتهم قدر المستطاع، أما أحلامها فتحمل دائماً هواجس وإنذارات لما سيحدث فى المستقبل.

وكانت المفاجأة التى أذهلت رينج فى نهاية الخطاب هو أن تلك المرأة لم تواجه الموت أبداً.. وأن تجربتها حدثت خلال بضع ثوانٍ عصر يوم من أيام الصيف عندما كانت تجمع الورود من أحد الحقول (والغريب أن أحداً من أصدقائها الذين كانوا إلى جوارها فى ذلك الوقت لم يلحظ شيئا عليها).. ماذا يعنى ذلك؟

أحدثت تلك الرسالة انقلاباً فى حياة رينج وجميع الباحثين بمؤسسة «إياندس»، فإذا كان من الممكن معايشة تجربة «إن. دى. آى» وبلوغ المرحلة الخامسة ببساطة أثناء قطف الورود فى الحقل.. فإن ذلك يعنى عدم وجود علاقة مؤكدة بين الموت و «إن. دى. آى» وبدأ رينج يفتش فى الوثائق الموجودة بالمؤسسة فاكتشف أعمالاً وأبحاثاً مشابهة لأبحاثه ولكنها غير مرتبطة بالموت.

من بين هذه الأبحاث دراسة قام بها الطبيب النفسى «ستانلى دين» حول ظاهرة أسماها «قمة الوعى لدى بعض المتصوفين». وقد وصف هذه الحالة الغريبة

فى عشرة نقاط، تتشابه معظمها مع تجربة العائد من الموت، فتحدث عن النور الباهر الذى يملأ الكيان والنشوة الفائقة الحد التى يشعر بها المتصوف فى مواجهة هذا النور ثم الإدراك الفجائى لمعرفة كل شىء، وشعور أصحاب هذه الحالة بالرأفة والشفقة نحو كل الكائنات الحية، وفقدان رهبة الموت للأبد واختفاء الاهتمامات المادية وإثارة الإحساس الجمالى داخلهم.

ويُظهر هؤلاء المتصوفون ذكاءً كامناً فى أعماقهم، وتقوى ذاكرتهم بشكل ملحوظ وكأن كل جزء فى أجسادهم قد أصبح واعياً.. حتى شخصيتهم تتغير وتصبح أكثر قوة وسيطرة تجذب الآخرين وتلهمهم. وتدفعهم قوة التجربة وعمقها إلى البحث عن أمثالهم ممن تعرضوا لها.

وأخيراً يبدى الذين خاضوا هذه التجربة مواهب خرافية، وقدرات نفسية غير عادية، مثل شفافية الرؤية وبعد النظر والقدرة على شفاء المرضى، وتناقل الخواطر من عقل إلى عقل على البعد وبغير الوسائل الحسية المعروفة، وتقول الأساطير القديمة إن تلك المواهب الخارقة قد تصبح مصدر خطر بالنسبة لشخص غير ناضج، لأنه قد يستغلها بصورة سيئة.

بعدما توصل رينج إلى هذه المعلومات، استغرق بحماس فى قراءة المجلدات القديمة التى تتناول عالم الروحانيات، ومنها كتب المصريين القدماء، وأهل التبت، والصوفيين، وكذلك كتب السحر وعلوم ما وراء الطبيعة،وتجمعت لديه صورة كاملة من المعلومات المختلفة التى قرأها، ولكن أخيراً.. وجد ضالته المنشودة، وربما مفتاح لغز تجربة الاقتراب من الموت «**إن. دى. اى**» فى الهند.

لقد عرفت التقاليد الهندية القديمة المرحلة الخامسة من «**إن. دى. آى**» أو مرحلة الذوبان فى الكون، وقد أسماها ممارسو رياضة اليوجا «**يقظة الكونداليني**» وهو الاصطلاح العلمى لما يبحثون عنه طوال حياتهم. والكونداليني تعنى الملتف حول نفسه.. لأنه طبقاً للعلم الهندى القديم، يوجد فى نهاية العمود الفقرى لكل منا مخزون كبير من الطاقة صورها الهنود على هيئة «**ثعبان الحياة**». وطاقة

الكونداليني هذه هي أساس الحياة، وهي معروفة في العديد من الحضارات القديمة منها الصينية واليابانية، وهي ما يسميه الصوفيون «البركة» في اللغة العربية.

إنه مستوى من الطاقة عرفه الكيميائيون القدماء، ويجهله علماء الغرب المعاصرون، والواقع أن تلك الطاقة الكامنة، أو ثعبان الحياة، لا تنام نهائيًا، وإلا توقف جسدنا عن الحياة، إنها تكون فقط في غفلة لدى الشخص الطبيعي، وتنقل الطاقة إليه تدريجياً. ويعرف ممارسو رياضة اليوجا كيفية إيقاظ الكونداليني من سباته العميق، فالمتجه نحو النور يتخلل جسدَه من أسفل إلى أعلى نورٌ غير عادي مظهراً في تركيبه التشريحي وجود جسم دقيق.

وكلما ارتفع هذا الجسم الدقيق في العمود الفقري للإنسان في اتجاه الرأس، تقوم طاقة الكونداليني بالسيطرة على جميع الأجهزة وخاصة الجهاز العصبي.. وتوقظ أثناء مرورها سبع «مراكز للحياة» يسميها الهنود «**شقرة**»، وهي عبارة عن بؤر أساسية تختزن فيها الطاقة في هذا الجسم الدقيق، (توجد الشقرة الأولى عند الجزء التناسلي، والثانية في البطن، والثالثة في الأعصاب، والرابعة في القلب، والخامسة في العنق، والسادسة في الرأس، والسابعة في قمة الجمجمة). وتعد هذه « **الشقرات**» ضوابط مسئولة عن صحة الإنسان البدنية والعاطفية والعقلية، كما أن حالة يقظة هذه « **الشقرات**» تحدد مستوى وعي الفرد.

وبمرور الكونداليني في هذه **الشقرات السبع**، فإنه يدفع بهذه المراكز إلى قمة فاعليتها، فيُخرج بذلك الطاقات الحقيقية لدى الفرد والتي كانت ٩٠٪، أو٩٥٪، منها كامنة دون أن يكتشفها من قبل.

ويعتقد ممارسو اليوجا أن من يجرب تنبه **الكونداليني** يأخذ الانطباع بأنه أصبح كائناً غير عادي، والواقع أنه مجرد رجل متنبه.

في كتابه الطريق إلى «أومجا» ذكر العالم رينج قصة أحد الهنود من ممارسي رياضة اليوجا.. كان جوبي كرشينا قد مر في بداية شبابه بتجربة عجيبة.

«لتنبه الكونداليني» امتدت طوال عدة أشهر. فى المرة الأولى شعر جوبى بأن رأسه ستنفجر وظل ممدداً على الأرض، وجسده متصلب بلا حركة حتى اليوم التالى. ثم بدأت أحلامه تمتلىء بهواجس وتخيلات لأحداث مستقبلية واستطاع أن يقرأ أفكار الآخرين. لقد شعر أن الشقرات الثلاثة الأولى فى جسده قد تنبهت، وبعد عدة أسابيع بدأ الكونداليني يسرى فى جسده من جديد، منبهاً الشقرة الرابعة الموجودة فى القلب.. وخلال عشرين دقيقة، أحس الهندى بأن طاقة كبرى تنتقل بين صدره ورأسه.. ورأت أمه التى كانت بجواره فى ذلك الوقت نوراً يسطع حول رأسه، وآخر يتألق عند مستوى صدره.

بعد تلك الواقعة بدأ الشاب الهندى يشفى المرضى بلمسهم بيديه.. لقد تغير تماماً، وفقد اهتمامه بالماديات، وفى مرحلة متأخرة تنهبت الشقرة الخامسة، فبدأ جوبى يعرف الماضى ويرى المستقبل وما يحدث فى المناطق البعيدة وراء الجبال.

وعندما تنبهت الشقرة السادسة بدأت الحالة تتشابه مع تجربة **إن. دى. اى** قوية.. فأحس جوبى بالخروج من جسده والذوبان فى واد ملىء بالنور البنفسجى. وبعد فترة قليلة تنبهت الشقرة السابعة، وبدأ نور ذهبى يسيل ببطء فوقه داخلاً وخارجاً من قمة رأسه، وتراءت له رأس «بوذا» بنفسجية اللون تحيطها هالة من النور الذهبى، ثم بدأ جوبى يفقد من جديد إحساسه بجسده ولكنه كان واعيا.. بل فى قمة الوعى، وسمع بعدها صوتا قوياً وحانيا يتردد فى الكون جعله يشعر بوجوده الروحانى، وغمره هدوء لانهائى، ثم أحس بضرورة ملحة للعودة إلى عالم الماديات.. فعاد من نفس طريق الذهاب: من قمة رأسه، وعندئذ أصبح جسده جامداً متصلباً وكان لابد من إنعاشه ثانية بمساعدة طاقته الروحانية.

ماذا يقول العلم الغربى الحديث عن مثل هذه التجارب؟.. لقد أقر علماء الأعصاب الغربيون أننا لا نستخدم سوى ١٠٪ فقط من إمكانياتنا الفعلية

وملكاتنا الفكرية. ويطرح ذلك سؤالاً هاما هو كيف تظل النسبة المتبقية (٩٠٪) بدون استخدام؟ هل منحتنا الطبيعة مواهب كامنة تظهر فقط عند الأزمات؟، إن أحداً من العلماء أو أصحاب النظريات الكلاسيكية مثل داروين لم يستطع الإجابة عن هـذا السـؤال.

ويجيب ممارسو رياضة اليوجا بطريقة مختلفة وغير علمية فيقولون: «إن **الكونداليني** طاقة سماوية، وتنبيه هذه الطاقة يُشعر الشخص بأنه كائن غير عادى، وأنه منح بعض الصفات السماوية. لأن **الكونداليني** تزيل من أعماقنا جميع السلبيات الناتجة عن تصرفاتنا القدرية».

كان الأمر مختلفاً بالنسبة لكنيث رينج.. **فتنبه الكونداليني** يسبب آثاراً مشابهة لما تحدثه **إن. دى.** آى للناجين من الموت.

تقول إحدى السيدات عن هذه الطاقة: «إن طاقة النور المبهرة تعطينى انطباعاً بأننى أعبر مسافة واسعة فى كل مرة تنتقل فيها هذه الطاقة من صدرى، حيث مكانها الطبيعى إلى رأسى، فتضىء قمة الجمجمة. وعندما أشعر بهذه الطاقة لا يمكننى إيقافها، فلابد أن تأخذ مجراها حتى لو كنت مجهدة أكاد أسقط من التعب.. فهى تظل تنير رأسى، وتبهرنى لفترة قد تصل إلى عدة ساعات.

بدأ كينيث رينج يتصل بمعهد أبحاث الكونداليني فى تورنتو من خلال مديره الدكتور جوزيف ديونج الذى يؤمن بأن تجارب **إن. دى. اى**، هى ببساطة حالات «عشوائية» من **تنبه الكونداليني** وقد استخدم ديونج هذا التعريف الغريب لأن ممارسى رياضة اليوجا يتدربون طوال حياتهم، مستخدمين طرقاً عديدة سواء فى التنفس أو وضع الجسم، أو التأمل لتنبيه الشقرات ليصلوا فى أحيان نادرة إلى تلك الحالة الروحانية الخارقة.

وبينما يتكبد ممارسو اليوجا كل هذا العناء، فإن بعض الأشخاص يصلون ببساطة لهذه الحالة الغريبة التى تتحرك فيها الطاقات الكامنة بداخلهم لمجرد أنهم اقتربوا من حافة الموت ودون أى تدريب أو تطويع للنفس.

بعد مرور بضعة أشهر من الدراسة والمقارنة.. اقتنع رينج أن تجارب إن. دى. آى وتنبه الكونداليني ينتميان لفصيلة واحدة، وحتى يستطيع العالم الأمريكى رينج تحديد معنى هذه الظاهرة، قام بوضع نقاط معينة عن دراسته لتجربة الاقتراب من الموت:

أولاً: توجد ظاهرة معروفة لدى الشرقيين باسم «تنبه الكونداليني».

ثانياً: طبقاً للهنود المتخصصين فى هذا المجال، فإن هذه الظاهرة تُحيِيّ فى الإنسان طاقات كامنة فى داخله.

ثالثاً: أقر العلم الغربى الحديث طبقاً لدراسات المخ والأعصاب بوجود طاقات كامنة فى داخل الإنسان.

رابعاً: لا يحدث «تنبه الكونداليني» إلا لممارس اليوجا الذين وصلوا إلى مستوى عال جداً من معرفة النفس والسلام الداخلى.

خامساً: تتشابه المرحلة الخامسة من تجربة الاقتراب من الموت إلى حد كبير مع وصف «تنبه الكونداليني» أو البركة عند الصوفيين.

سادساً: قد تحدث تجربة الاقتراب من الموت لأى شخص وفى أى وقت.

سابعاً: لقد أدى التقدم التكنولوجى فى إمكانيات الإنعاش إلى مضاعفة حالات العائدين للحياة بعد هذه التجربة. فقد بلغت ثمانية ملايين حالة فى أمريكا وحدها بينها مليون ونصف مليون شخص مروا بالمرحلة الخامسة طبقاً لإحصائيات جالوب.

والخلاصة كما دونها رينج هى حدوث تغيير جذرى للعائدين إلى الحياة فى أعقاب هذه الرؤى المذهلة.

ذات يوم حكى لى هندى تُمَيز صوته بَحة مُعينة من آثار إدمان الخمر هذه القصة: «عندما أراد الخالق العظيم خلق هذا العالم بدأ بالإنجاز الأول أو النشوة الأولى وهى النور، ثم ظهرت الحجارة لتكون الطريق الطويل إلى الإنجاز

الثانى: الكريستال (البلور)، بعد ذلك بدأ العشب ينمو وأخذ تدريجيا يلتصق بالأرض على هيئة نباتات، ثم غابات مكونة بذلك الإنجاز الثالث: الأشجار. وفى تلك الأثناء ظهرت الحيوانات التى مهدت الطريق أمام الإنجاز الرابع: الحوت (الثدييات). وأخيراً جاء دورنا نحن البشر ليكون الإنجاز الخامس هو الإنسان، فإذا أردنا السمو بالإنسان علينا أن نحترم الإنجازات الأربعة السابقة والتى يتجاهلها للأسف كثير من البشر!. لذلك فإننى أشرب الخمر باستمرار ولكنى لم أنسَ مطلقاً هذه الإنجازات الأربعة التى سبقتنا، ولن أتوقف أبداً عن التأمل فى تطور الإنجاز الخامس أو النشوة الخامسة».

لقد فهمت فيما بعد بفضل قصة هذا العجوز الهندى مقولة العالم كونراد لورينز: «نحن نُعتبر الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان». إنها ليست دعابة، ولكن الحقيقة أننا فى العديد من المجالات وعلى معظم المستويات لسنا سوى أجزاء إنسان، والسبب أننا لم نصل بعد لاستخراج جميع طاقاتنا.. التى تكمن بداخلنا، إننا نمثل مرحلة فى تطور الإنسان الذى يتغير مع تطور الحياة.

ويقول عالم المخ والأعصاب هنرى لابورى الذى ذهبنا لاستشارته: «إننا نتقدم ببطء فظيع.. فعقلية الإنسان لم تتغير منذ العصر الحجرى الأخير وهذا يعكس عشرة آلاف سنة من الجمود والركود».

إن كلام لابورى قد يكون صحيحاً بالنسبة للأغلبية منا ولكن هناك البعض الذين بدءوا يتغيرون جذريًا ويقتربون من الهدف المنشود: تطور الإنسان.

ذات مساء وأثناء خروجه من أكاديمية الأديان والعلوم النفسية فى شيكاغو بعد محاضرة ألقاها.. التقى كينيث رينج بصديقه القديم الفيلسوف جون وايت، كان وايت يتحدث بحماس عن كتابه الأخير «هومو نويتكاس» ولاحظ أن استنتاجاته وافتراضاته فى هذا الكتاب تتطابق تماماً مع أقوال رينج.

قال وايت لرينج: «إننا نعيش لحظة حاسمة فى تاريخ تطور الكون.. لحظة أكثر أهمية من ثورة العصر الحجرى نفسها، فتلك التجارب الشهيرة إن. دى.

آى تمثل مرحلة تطور بين الوضع الحالى والوضع المستقبلى للنمو البشرى لإطلاقها الطاقات الروحانية الكامنة حتى الآن فى أعماق الإنسان».

وفكر رينج فى أن كوكب الأرض يحتاج لأفراد أكثر مرونة وأكثر تعاوناً وأكثر محبة حتى يستطيعوا الاستمرار فى البقاء.. فالتطور الشامل للتكنولوجيا والقدرة على تركيز قدرات الإنسان وطاقاته يعطيان انطباعاً بضرورة حدوث تغير جذرى، أو طفرة فى حياة الإنسانية إذا أرادت أن تواصل البقاء.. فهل يعنى ذلك أن أصحاب تجربة المرحلة الخامسة يمثلون نماذج لإنسان المستقبل؟!

قال جون وايت لصديقه: «إننا لا نطلق على هؤلاء اسم «بنو البشر» أو «هومو سبيان» ولكن «هومو نويتكاس» وتعنى كلمة نويتكاس العلاقة بالوعى ودراسته، وقفز رينج من فوق كرسيه.. إنها الكلمة التى يبحث عنها منذ عشر سنوات حين بدأ تجربته الأولى فى العلاج النفسى: التجربة الواعية!.

واندفع وايت يكمل فى حماس: «إن هومو نويتكاس» أو «الإنسان الواعى» لن يتحمل بعد ذلك أن يكبت المجتمع طاقاته التى تريد أن تتفجر. إن تكوينه النفسى سيقوم بالتعبير عن المشاعر والانفعالات وليس كبتها، وسيكون دافعه نحو العمل هو التعاون وليس التنافس أو معاداة الآخرين، حتى طريقة تفكيره ومعالجته للأمور ستكون متعددة ومترابطة ومتزامنة وليست متسلسلة أو روتينية أو محدودة، والطرق التقليدية لن تناسبه....»

ظلت تعبيرات وايت تتردد فى ذهن رينج لفترة طويلة.. هل من الممكن أن يصبح أصحاب تجربة إن. دى. آى بالفعل نماذج لإنسان المستقبل الواعى؟.. إن الذين بلغوا المرحلة الخامسة يعتقدون أنهم عادوا إلى الحياة بدرجة «الوعى الأرضى» ليحققوا مهمة معينة هى مساعدة البشرية على سرعة تطوير وعيها.

أخذ رينج يفكر: هل نحن نقترب من عصر ذهبى؟.. إنه يعرف أن أصحاب تجربة إن. دى. اى، هم بالتأكيد رمز لشىء ما ولكنه يريد أن يعرف بقية الرواية.. ما هى المرحلة التالية بعد التجربة؟.. إنه سباق مع الزمن..

وتذكر رينج أن هؤلاء العائدين من أصحاب الرؤى يستطيعون التنبؤ بالمستقبل خارج حدود المكان والزمان الحالى، فليسألهم كيف يرون المستقبل الجماعى للبشرية؟.

البعض لم يروا شيئاً ولم تكن لديهم إجابة.. والبعض ذُهل من طبيعة السؤال.. أما الباقون فاستغرقوا بعض الوقت ليجيبوا: (الرعب.. رؤى فظيعة.. مذابح لا حد لها تهدر فيها أرواح كثيرة وتنزلق إلى هاوية غير معروفة.. محرقة عامة.. نهاية العالم...).

قام بعض الباحثين فى مؤسسة «إياندس» بمحاولة تفسير هذه الرؤى المستقبلية البشعة، أكد الأكثر تشاؤماً أن هذه الرؤى ستتحقق بالفعل فى صورة صراع نووى عالمى خلال السنوات القادمة ينتهى بفناء البشرية. وقال المتشائمون المعتدلون إن هذه الرؤى يمكن اعتبارها إعلاناً عن تجربة جماعية عظيمة من تجارب إن. دى. آى.. فالجنس البشرى بدأ يدرك مؤخراً مكانته فى الكون وهو يوشك على الانقراض.

ويميل الباحثون المتفائلون إلى تفسير هذه الرؤى على أنها مجرد إنذار.. فالإنسان يُحذر نفسه: إذا لم يتغير ويفتح قلبه وعينيه ليرى العالم على حقيقته فإنه سيلقى هذا المصير المدمر.

لم يقتنع رينج بهذه الآراء.. فهو يرى أن تلك الرؤى المرعبة لابد أن تفسر بصورة رمزية.. هذه المذابح والتصفيات الجسدية هى فى الواقع انقلاب نفسى كبير مثل وفاة رجل عجوز، أو حدوث طفرة للجنس البشرى فى وقت قريب، أو انقلاب جماعى كبير.. ولكن كيف يمكن للبشر أن يتغيروا بعد أن ظلوا طوال هذه المدة محلك سر؟!.

عاد رينج بذهنه إلى افتراضات العالم «روبير شلدراك» التى تقول «إنه كلما تكررت الصورة أصبح ظهورها أسهل مادياً». فخلال آلاف السنين تمكنت قلة من البشر من تحقيق الكمال لقدراتهم، وعرفوا كيف يستغلونها، وفى كل

مرة ينجحون فيها كانت تتنبه لديهم **طاقة الكونداليني**. إن جميع الطفرات الكبيرة والهامة فى حياتنا قد تمت بنفس الطريقة منذ بدء الخليقة، وعندما يصبح المجال مهيئاً، يتطور كل شىء بسرعة وتتبلور العناصر الأكثر بطئا فى صورة جديدة. واليوم تثبت ظاهرة **إن. دى. آى** أننا فى انتظار (بعد عشر سنوات أو مائة عام) تجربة شاملة لتنبه الكونداليني أو شيئاً من هذا القبيل.

إن صبغة الإنسانية واحدة، ومهما اختلفت الثقافات أو المعتقدات فإن جميع البشر ينتمون إلى أصل واحد.. فالجميع متساوون، ولكن ما هى تلك الرابطة الخفية التى تربط كل هؤلاء البشر خلال مراحل التطور؟.. هذا الرباط الذى يربط بين جميع الأجناس من آلاف وربما ملايين السنين رغم جميع الفوارق الظاهرية، ويجمعهم فى قارب واحد فى اتجاه هدف محدد هو الإنجاز الخامس، أو النشوة الخامسة: الإنسان. ذلك الإنسان الجديد الذى فقد رهبته من الموت إلى الأبد.. إنسان بنسبة ١٠٠٪.. ولكن هل يعنى وجود هذا الإنسان الوصول إلى نهاية العالم؟!

لقد بدأت رأسى تدور...

إن الإنسان الواعى «هومو نويتكاس» فى طريقه للظهور.. رغم كل المعاناة والطمع والحماقة الموجودين على ظهر هذا الكوكب. فالشخص الفانى الذى تقف حدود وعيه المتنبه عند ١٠٪ فقط من إمكانياته لايستطيع التصدى لما يحدث حوله.

عند هذا الحد شعرت بضرورة العودة إلى الأم الروحية لهذه الظاهرة.. إليزابيث كوبلر–روس. كيف أصبحت منذ تركناها؟.. إنها لا تزال تساعد المحتضرين وتستمع إلى رؤياهم بإصرار ودون ملل.

لقد عرفت أخيراً سر هذه الطاقة المذهلة. والحيوية التى تتمتع بها إيكر.. لقد مرت هى نفسها بتجربة «**تنبه الكونداليني**» الشهيرة ذات ليلة لدى روبير مونرو.

تجربة خيالية

استغرقت وقتاً طويلاً لأفطن لحقيقة هامة رغم وضوحها، وهى أن العلماء الذين التقيت بهم فى محاولة كشف سر ظاهرة الاقتراب من الموت كانوا جميعاً من الرجال: مودى وسابوم ونوى ورينج وغيرهم.. جميعهم اهتموا بهذه الظاهرة بحثاً عن منطق يُقره العقل فى محاولة فهم أسرار الموت.

لم يكن العقل وحده دافعهم لخوض هذه التجربة..، وإنما شدهم أيضاً الغموض المحيط بها لمعرفة المزيد، وكأنها لعبة بدءوها ولابد من الوصول إلى نهايتها لكشف اللغز الكبير الذى بدا لهم مثل قصص الخيال العلمى المليئة بالإثارة والمفاجآت.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن ميدان البحث فى هذا المجال الغريب كانت الريادة فيه لامرأة، هى إليزابيث كوبلر–روس. وقد يصحح البعض هذه المقولة مؤكدين اقتحام أكثر من سيدة هذا المجال منذ البداية، ومنهن الأم تريزا فى الهند وسيلى سوندرز فى بريطانيا، وغيرهن كثيرات لا نعرف عنهن شيئاً حتى الآن.

لقد اكتشفت عند عودتى لفرنسا أن هذا التيار العلمى الذى ظهر فى الثمانينات، قد اجتذب إليه العديد من النساء قبل الرجال معظمهن طبيبات تعاونهن ممرضات. كان الجانب الإنسانى لديهن أكثر أهمية وجذباً من الجانب العلمى. فشعورهن باحتياج المحتضرين لمن يتفهمهم منحهن الرغبة والقوة فى الاقتراب منهم، ومحاولة كشف سر النبع الأسود (الموت) الذى يُوَلِّد لدى المحتضر تجربة فريدة من نوعها.

إننى أعتقد أنه لولا القلب الكبير لهؤلاء السيدات، لما أمكن الاقتراب من هذه الفئة المحكوم عليها بالموت، وما كان بوسع العلماء الرجال حتى العبقرة منهم عمل أى شىء بالجانب العلمى وحده.

ولكن لماذا النساء على وجه التحديد؟.. هل لأن المرأة هى التى تمنح الحياة بينما قد ينهيها الرجل بالقتال.. هل لهذا السبب تستطيع المرأة وحدها أن تبسط للناس حقيقة الموت؟.

لقد استعانت النساء اللاتى خضن تجربة مواساة المحتضرين بخبرات إليزابيث كوبلر روس فى هذا المجال، وهى تجارب حية أكثر من كونها نظريات ثابتة.

عندما أرسل رايموند مودى لإليزابيث عام ١٩٧٤ يطلب منها كتابة مقدمة الكتاب الذى ألفه عن تجربة إن. دى. اى وافقت قائلة: «إنك شجاع بحق، إن زملاءك سيثورون ضدك.. ولكن لا عليك.. فأنا أيضا عايشت مجموعة ضخمة من هذه التجارب التى تطلق عليها «إن. دى. اى»، وإن كنت لم أجد الوقت لجمعها فى كتاب، ولكننى سأفعل يوما ما».

يوم ما؟ فى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور فى ديسمبر ١٩٨٥ يكون قد مر أحد عشر عاماً على هذه المقولة، هذه الفترة نشرت خلالها إيكر سبعة كتب حول ملازمة المحتضرين، ولم يكن من بينها مؤلف واحد عن حالات «إن. دى. اى». كانت دائما مشغولة بملازمة العديد من المحتضرين، ومؤازرة الكثير من الأحياء، فلم يتوفر لديها الوقت والفراغ لتخصيص شهور وسنين طويلة من الدراسة لهذه الظاهرة الغريبة مثلما فعل العلماء الرجال.

إن ذلك لا يعنى عدم اهتمامها بهذه التجارب، فهى تستهويها بالفعل. وقد وعدت بأن تخصص لها قريباً كتاباً مستقلاً تتطرق فيه إلى الحالات العجيبة التى عايشتها بحكم عملها الخاص جداً، والقريب من أصحاب التجربة وخاصة المكفوفين.

وتتعجب إيكر من تسابق العلماء لنشر إحصائياتهم حول العينات التى مرت بتجربة إن. دى. اى، بينما لا زالت تحتفظ وهى الرائدة فى هذا المجال بمعلوماتها حول هذا الموضوع.

لقد أخطئوا من وجهة نظرها فى اختيار أرض المعركة.. فالقضية ليست إقناع الإنسان العادى بوجود الروح والحياة الأخرى، ولكنها كيفية تحريك قلبه، وذكائه ليتفهم قسوة اللحظات الأخيرة فى عمر الإنسان، إنها إنسانة عملية وواقعية، ترى أن النظرية الجامدة لا قيمة لها بدون التجربة الحية.

بهذا المنطق قرأت إيكر عام ١٩٧١ كتاباً غريباً بعنوان «رحلة خارج الجسد» من تأليف شخص يدعى روبرت مونرو. إنه مهندس صوتيات كان يعد برامج للإذاعة فى الخمسينات، ثم أصبح رئيس محطة إذاعية فى نيويورك، وكان يمكن أن يظل كذلك لولا ما حدث له ذات ليلة حين فوجىء أثناء نومه «بخروجه من جسده».

فى البداية اعتقد مونرو أنه يحلم، كان الحلم واضحاً يتكرر دائماً بنفس التفاصيل.. فيرى نفسه راقداً فوق سريره ثم يشعر بأنه يتخطى سقف الحجرة إلى الخارج، فيسبح فى الهواء متأملاً منزله والشارع الذى يقطن به. السكون يخيم على الحى لا يقطعه سوى أصوات بعض السيارات العابرة، وبين حين وآخر تمر قطة أو دورية شرطة.. إنها حياة عادية لا تشوبها أى غرابة، وظل الحلم يتكرر كل ليلة حتى فطن مونرو إلى أنه لا يحلم.

بدأ الأمر بنوع من المزاح فكان مونرو يتجول فى الحى وينتقل بين منازل جيرانه، ثم أخذ يدبر المقالب والخدع لأصدقائه. وبعد فترة شعر مونرو بالخوف ولجأ إلى استشارة طبيب نفسى صديق هو الدكتور فوستر برادشو متوجساً من أن تكون هذه الأعراض مؤشراً لإصابته بالجنون، ولكن الطبيب طمأنه رغم صوته الملىء بالسخرية، ونصحه بأن يمنح نفسه إجازة فى مكان هادئ وسط الطبيعة، وبعيداً عن روتين حياته اليومية.

مرت سنتان قبل أن يستمع مونرو لنصائح طبيبه، فبعد ما تأكد من سلامة عقله بدأ يعيش حياة مزدوجة، فى الصباح يعمل كرجل أعمال فى نيويورك، وفى المساء يكتشف هذا العالم الخيالى الجديد.

تكررت تجارب مونرو حتى استطاع أن يكتشف كيفية القيام إرادياً بهذه «الرحلات خارج الجسد» بإحداث صوت معين فى اللحظة التى يشعر فيها أنه يغالب النعاس: صوت داخلى يزلزل الجسد كله برفق.

تعلم مونرو تدريجيا عن طريق تكرار التجربة أن يذهب فى رحلات بعيدة، فبمجرد الخروج من الجسد يستطيع الوعى أن يقوده إما إلى نفس الزمان والمكان الذى نعيش فيه، والذى يطلق عليه «المنطقة المحلية الأولى» أو إلى منطقة خيالية، يرى فيها العصور الماضية ويتحقق من بعض الحقائق التاريخية.. ويسمى مونرو الرحلة الأخيرة «المنطقة المحلية الثانية».

بعد عامين استقال روبرت مونرو من منصبه فى الإذاعة وانتقل للإقامة فى منزل بالريف فى أعماق ولاية فرجينيا حيث أخذ يخطط لإنشاء معمل لإتقان تجاربه ورحلاته باستخدام التكنولوجيا الحديثة.

بعد سنوات من البحث نجح مونرو فى الوصول إلى طريقة يمكن بها دفع الآخرين للقيام برحلة خارج الجسد: يمكث الشخص فى غرفة مغلقة ومظلمة بعيداً عن أى أصوات خارجية، ويظل ممدداً فوق مرتبة مليئة بالمياه، واضعاً على أذنيه سماعات، وعلى رأسه ويديه أقطاب (موصلات) كهربائية تؤدى إلى ثبات الحالة العقلية والعاطفية لدى الشخص.

فى المرحلة الأولى يرسل مونرو من خلال هذه السماعات، وعن طريق سفينة فضائية حقيقية مجموعة من الأصوات، التى تبعث على الاسترخاء ومنها موج البحر الذى يحيط المكتشف (كما يطلق عليه مونرو) بموجات «ألفا» وربما موجات «سيتا» التى تميز الحالة الوسيطة بين النوم واليقظة.

عندما يسترخى جسد المكتشف تماما، ويصبح على وشك الاستغراق فى النوم يرسل مونرو صوتاً مفاجئاً هو مزيج بين صوتين يختلفان فى ترددهما بمقدار بسيط لا يزيد عن أربعة هرتز. يصل هذان الصوتان إلى الأذنين ويسجلهما المخ، وكأنهما صوت واحد يصدر من داخل الإنسان، وتكون النتيجة أن يظل جسد المكتشف مسترخيا وشبه نائم بينما يتنبه وعيه.. وهنا يمكن للرحلة أن تبدأ.

ذهلت إيكر مما جاء فى كتاب مونرو، وتأكدت من قيام أشخاص جادين بدراسة ظاهرة «الخروج من الجسد». كانت تجهل الكثير عن علم النفس المساعد، وكانت معلوماتها عن هذه الوسائل الفنية قليلة جداً. لقد سمعت بأشياء مشابهة فى قصص العائدين من الموت، ولكنها أبداً لم تصدق إمكانية إحداث عملية الخروج من الجسد.. وحتى تتخلص إيكر من حيرتها، كتبت إلى مونرو الذى لم يتردد البتة فى دعوتها لتشاهد عن قرب تجربته الغريبة ضمن وفد من الأطباء البشريين والنفسيين، والمهندسين، الذين سيحضرون للتأكد من مصداقية اختراعه.

عندما جاء دورها دخلت إليزابيث الحجرة الصغيرة المغلقة، واستلقت على «الفراش المائى». كان أمامها حوالى نصف ساعة حتى تسترخى بالقدر الكافى قبل إرسال الصوت إلى أذنيها، فعملية «الإقلاع» نفسها لا تتم بصورة تلقائية فى كل مرة حيث يحتاج معظم الأشخاص إلى عدة جلسات تدريبية.

أما إليزابيث فلم تستغرق سوى عشر دقائق، شعرت بعدها بأنها صعدت إلى سقف الحجرة، ومن غرفة التحكم رأى مونرو المؤشر فى العداد يشير إلى سرعة الإقلاع فانتابه القلق. إن الإقلاع بمثل هذه السرعة لا يقوم به سوى «مكتشف محترف»، ومن ثم أصدر مونرو أوامره إليها بالعودة فوراً إلى القاعدة.

بعد الهبوط إلى مستوى الأرض أبدت إليزابيث استياءها من تصرف مونرو قائلة: «إننى أحب عندما أقوم بعمل ما أن أنجزه بإتقان وإلى النهاية». وقررت

إليزابيث أن تقوم بهذه الرحلة الغريبة مرة ثانية، وأن تصل بالتجربة إلى أقصى حد ممكن دون أن تخضع لسيطرة أحد.

إنها لم تشعر بمثل هذا الإحساس من قبل.. مثل عصفور رقيق خفيف الوزن يغمره شعور جميل بالحرية، في ذلك الوقت من عام ١٩٧٢ كانت إيكر مريضة تعاني من انسداد في الأمعاء، وتحيا على الأدوية، ولا تستطيع القيام بأي مجهود جسماني لأكثر من ساعة واحدة وإلا سقطت من التعب.. لقد بدأت تدفع غالياً ثمن سنوات طويلة من العمل المضني، ولذا كان الهروب من جسدها المنهك شيئاً ممتعاً حقاً.

في الرحلة الثانية اختفت إليزابيث عن الواقع لمدة عشرين دقيقة، كانت رحلة طويلة استيقظت بعدها بدون مشاكل، ولكن دون أن تتذكر شيئاً على الإطلاق سوى كلمتين هما «شانتي نيلاية». سألت إليزابيث ضيوف مونرو عن معنى هاتين الكلمتين فأكد لها أحدهم أن كلمة شانتي تنتمي للغة البراهمة.

وبدا أن تغيراً ملحوظاً قد طرأ على السيدة ذات الشعر الأبيض، لقد عادت إليزابيث من الرحلة، وهي متألقة، وكأنها رجعت لتوها من إجازة طويلة في أحضان الطبيعة والجبال. وانقضت بضع ساعات قبل أن تفطن إليزابيث إلى أمر غريب.. إنها لم تعد تشعر بآلام في بطنها.. لقد شفيت!.

طال النقاش والجدل حول تفسير هذه الظاهرة العجيبة، وأبدت إليزابيث تخوفها من أن تكون قد تجاوزت حدود المعقول والمنطق، وفي الواحدة صباحاً، عندما ذهبت إلى منزلها الصغير الذي سمح لها مونرو بالإقامة فيه تحول خوفها إلى قلق واضح: إنها بصدد حدث هام ولكنها تجهل ماهيته.. وانتابها شعور غريب بأنها يجب ألا تنام أو تغفل.. إنها خائفة جداً.. قد تكون في حاجة لمساعدة أحد ولكن فات الوقت.. إنها لا تستطيع التراجع، وتركت إليزابيث جميع أنوار المنزل مضاءة وقاومت النوم لمدة نصف ساعة أخرى ولكنها لم تستطع الاستمرار فغلبها النعاس، وهي بكامل ملابسها ممددة على الأريكة.

وما كادت إيكر تغفل حتى شعرت بأنها تخرج من جسدها.. إنها حقيقة وليست دعابة.. لقد بدأت الرحلة وحدها ودون أن يوجهها مونرو العجوز، أو يأمرها بالعودة، وأحست إليزابيث أنها تصعد بسرعة كبيرة ثم بدأت الصور تتتابع... إنها تسترجع من جديد وجوه جميع الأشخاص الذين ساعدتهم فى لحظة الاحتضار. إنهم مئات.. وتشعر إيكر بآلام شديدة فى القلب والحنجرة كلما تراءت لها صورة أحدهم. آه! لقد فهمت.. إنها الآلام التى كانوا يشعرون بها عندما توفوا بين يديها، وسيطر عليها رعب شديد.. إنها تريد أن تصحو لتهرب من مطاردة الذكريات ولكن أين المفر؟.. إن جسدها نائم بالفعل ولكن وعيها يقظ متنبه!

أحست إيكر أن السرطان ينهش وجهها وأحشاءها وأن عروقها تكاد تنفجر، وعضلاتها تتقلص مسببة لها آلاما مبرحة من قدميها حتى قمة رأسها.. يا للعذاب!! إن عظامها تكاد تتحطم ودمها يتعفن وكأنها أصيبت بالتسمم.. حتى معدتها تعانى من الغثيان الشديد، إن جسدها بأكمله قد انتفخ مثل ورم صديدى. لم تعد تتحمل هذه الآلام الفظيعة، التى لم تشغلها لحظة عن المعاناة النفسية بل بالعكس زادت من الكآبة والوحدة التى تشعر بهما لأول مرة فى حياتها بمثل هذه الصورة.

سرعان ما أدركت إليزابيث أنها لن تستطيع الهروب من هذا الكابوس الفظيع، فأخذت تدعو ربها متمنية وجود رجل إلى جانبها لتشعر بالأمان.

ولدهشتها جاءها صوت هادىء بجواب قاطع: لا. وارتعدت فرائصها.. هل وقعت ضحية خدعة أراد بها روبرت مونرو تعذيبها؟.. من أين جاء ذلك الصوت؟ لا وقت للتساؤل.. إنها تعانى فوق طاقتها، وبدأت وجوه المحتضرين تتتابع من جديد أمامها ببطء ووضوح شديدين، فشعرت مرة أخرى بالحاجة إلى وجود رجل بجانبها، وأخذت تدعو ثانية: «يارب امنحنى القدرة على أن أمسك بيد رجل».. وجاءها الجواب من جديد كالصفعة: لا!.

جن جنون إليزابيث وتساءلت عما إذا كانت مشرفة على الموت.. آه لو كانت تستطيع!.. إن ما يحدث لها أبشع من الموت ذاته، لقد أصبح جسدها أشبه بقطعة من اللحم تحترق فوق النار.. ولكن هل هذا هو جسدها فعلاً؟.. إنها لم تتصور يوماً ما أن الإنسان يستطيع تحمل مثل هذا العذاب دون أن يفنى وينتهى، ولكن هاهى تتعذب بشدة، ولا تزال على قيد الحياة، وأخذت تحدث نفسها: «آه لو لمست يداً قوية تؤازرنى، أو حتى إصبعاً واحداً مثل طفل صغير يتعلق بسبابة والده ليستطيع المشى».

ولم تستطع إليزابيث الاستمرار فى المقاومة فاستسلمت للآلام التى تنهش جسدها. وفى لحظة محددة مرت من خلال ستار أسود فانقلب كل شىء رأساً على عقب..، ذهبت الآلام وغمرها شعور بالسلام والسكون. ماذا حدث؟... إنها تتذكر جملتين محددتين: «إننى مقبولة» و«إننى جزء من الناس».

لقد تحولت آلاف الوجوه المحتضرة إلى آلاف الأيدى التى تحملها برفق وحنان، بل وتعيد إليها من جديد حيويتها المفقودة، وظهر ضوء أبيض ذهبى فأشاع بداخلها فيضاً من السعادة، وكأنها نشوة مضاعفة آلاف المرات.

عندما عادت إليزابيث إلى العالم المادى، كان الليل لا يزال مخيماً على المكان، لقد مرت ثلاث ساعات ونصف منذ استغرقت فى النوم.. وأفاقت لتجد نفسها ممددة على الأريكة وجميع الأنوار مضاءة من حولها.

اختلف معنى الحياة بالنسبة لإليزابيث بعد هذه التجربة. لقد باتت رؤيتها الغريبة لدى مونرو ملازمة لها على الدوام.. طوال أشهر عديدة، لم تستطع البوح بسرها لأحد، ولكن شيئاً واحداً لاحظه الجميع، ولم يمكنها إخفاؤه، وهو تحسن صحتها بدرجة ملحوظة.. فالجميع من حولها يتساءلون عن المعجزة التى حدثت لها، إنها ليست معجزة ولكنها نعمة أو هبة يحظى بها البعض ويعرفها جيداً الشرقيون: إنها تنبه **الكونداليني**.

مرت سنوات قبل أن تستعيد إليزابيث توازنها من أثر التجربة. كان تلاميذها فى قسم علم النفس ببيركلى (زملاء ستاغيلاس جروف) هم أول من أضاءوا أمامها الطريق.. فقد قصت عليهم كل شىء دون أن تخشى اتهامهم لها بالجنون، وعلمت منهم أنها مرت بتجربة معروفة لدى الحكماء، بلغت من خلالها درجة معينة من الوعى بالكون، أما كلمتا «شانتى نيلاية» التى يئست من معرفة معنيهما فتعنيان بلغة البراهمة «بيت السلام».

اختارت إليزابيث فيما بعد فى عام ١٩٧٧ هذا الاسم «شانتى نيلاية» ليكون لقب المنزل الذى استقرت فيه فى «اسكونديدو» بجنوب كاليفورنيا بالقرب من الحدود المكسيكية. وأصبح «شانتى نيلاية» ملاذاً للآلاف من البشر بعد أن كان قاصراً على المحتضرين أو من هم فى حالة حداد، والسبب هو النور الذى أضاء عقلها فى الليلة المشهودة لدى مونرو وغير مسار عقلها وتفكيرها عند نقطة حرجة، فآمنت بأن الموت ليس انفصالا كاملا عن الحياة وإنما «إحدى مراحل النمو». ومنذ ذلك الحين أصبح عملها يهتم بمساعدة الأشخاص على «النمو».

إننا نخشى الحياة لا الموت.. فالذى يخشى الموت لم يعرف كيفية الاستمتاع بالحياة، ولكن ماذا تعنى الحياة؟ وماذا يعنى النمو؟..

عرفت إليزابيث تجارب روحانية أخرى ودخلت حياتها شخصية غريبة كانت تطلق عليها أحيانا لقب «المرشد»، وأحيانا أخرى «الشبح». كانت تستمع لأصوات غريبة مثل صوت جان دارك.. إنه صوت داخلى وكأنه ملاكها الحارس فكان الحوار مستمرا بينهما.

تركت إيكر الساحة العلمية نهائيًا، وزعمت أنها لم تغير معاييرها فى تقييمٍ الأمور، وكان يحلو لها أن تردد: «سأظل دائماً مرتابة فى أى شىء مالم أجربه بنفسى». ولكن تجاربها كانت تحيد دائماً عن القاعدة، فأصبحت غير مقبولة

من جانب العلماء المعاصرين، بعد أن بدأت تستمد منهجها فى التدريس من حوارها مع ذلك «الشبح النورانى».

نجحت تجارب إيكر الروحانية فى إثراء تجاربها العلمية ومنحها أبعاداً أكثر عمقاً، فقد استطاعت أخيراً تعريف تلك المقاومة المستميتة التى بدأتها منذ سنوات طويلة عندما كانت لاتزال فى الحادية عشرة من عمرها، هل كانت تقاوم شبح الموت؟.. هكذا كانت تعتقد ولكنها كانت مخطئة. الآن اتضح كل شىء أمامها.. إنها تقاوم السلبية أوكل شىء يعوق تدفق طاقة الإنسان وحيويته ويمنعه من العيش فى حب وسعادة، وكذلك كل ما يجعله تعيساً, شريراً, مريضاً أو أحمق.

قال الشبح النورانى لإيكر: «إن سلبية كل فرد تساهم فى زيادة السلبية الجماعية التى تهدد العالم، وبالعكس فإن كل موقف يتصرف فيه الإنسان بشكل إيجابى فى أى مكان فوق ظهر هذا الكوكب، يقلل من الخطر الذى يهدد البشرية بتدمير نفسها».

كيف يصبح الإنسان إيجابيًّا؟.. كانت إجابة الشبح النورانى لا تتعارض مع علماء النفس المعاصرين (أو تراه أوحى إليهم بها؟): «لابد أن تفلت الأحاسيس المكبوتة من سجن اللاوعى حتى يمكن لنهر الحياة أن يتدفق بحرية».

ويهمس فى أذن إليزابيث بأن الأحاسيس «الطبيعية» تحصى على الأصابع.. هناك الإحساس بالخوف (الخوف من السقوط والخوف من الأماكن العالية)، والغضب (إزاء أى تغير غير مرغوب فيه)، والغيرة (التى تدفع الإنسان للتقليد والتفوق) والحزن (فقدان شىء ما أو إنسان عزيز) والحب (الذى يعتقد فيه الشخص عادة بقدرته على الصمود والرفض). أما المشاعر المتبقية جميعها فهى بالنسبة لمرشد إليزابيث مشتقة من هذه الأحاسيس الخمس الطبيعية.

وتسأله إليزابيث ذات يوم عن العلاقة بين مساعدة المحتضرين ومقاومة السلبية، ويأتى الرد:

(إن الاحتضار يمثل ببساطة الفرصة الأخيرة أمام أى فرد للتخلص من السلبية التي لم يستطع التحرر منها فى حياته، إنها الفرصة الأخيرة لعمل ما خلق من أجله.. وهو أن يفعل أى شيء «لمساعدة العالم»!).

– وما هو ذلك الشيء؟

– أن يكون أكثر إيجابية.. حتى لو كان ذلك فى لحظاته الأخيرة.. هكذا يكون قد أنهى مهمته فى الدنيا، لكن هذه المهمة تصبح صعبة لو توقف عند إحدى المراحل الوسيطة فى الاحتضار.

– وماذا يحدث فىهذه الحالة؟

– لابد أن يعود من جديد، ويبعث ثانية ليقوم بنفس العمل مرات ومرات حتى ينجح فى مهمته، وبالتالى ينتقل إلى مستوى آخر من الوعى..

البعث؟... إن الإيمان بالبعث والحياة الثانية يفتح المجال لحل لغز الكون تدريجيا، وعندما يتساءل الإنسان المعاصر عن ماهية الموت، يجيب الأقدمون:

– لا يمكن الرد على هذا السؤال إذا توقفنا عند حدود الإنسان الجسمانية أو موت الجسد، فالإنسان أرقى وأسمى بكثير من ذلك.

ويعترض إنسان العصر الحديث الذى يؤمن بالعلم والماديات:

– ولكن كل شيء يكمن هنا فى هذا الجسد!

– لا.. هناك طبقات عديدة وأبعاداً متعددة لهذا الجسد، قد يكون الجانب الجسمانى مرئيا والجانب النفسى لاتدركه الحواس العادية ولايرتبط بالزمان والمكان، ولكنه موجود تماماً مثل الجسم المادى الذى يهرب منه الإنسان عندما يحلم أو «يخرج من جسده» لسبب أو لآخر.

– أتقصد عند مروره بتجربة الاقتراب من الموت «إن. دى. اى».

– على سبيل المثال..

– ولكن هل يموت الإنسان فعلاً ولو للحظة عندما «يخرج من جسده» لدى اقترابه من حافة الموت؟

– بالطبع لا.. يؤكد الحكماء القدامى.. فنحن عندما نموت نتوفى نهائيًا.

– وماذا يحدث إذن عند الموت؟

– ينقطع الرباط الخفى الذى يصل الجسم المادى بالجسم الدقيق.

– أتعنى بالجسم الدقيق «الروح»؟.

– إن الروح تغوص فى أبعاد أكثر دقة..

– ولكنها لا تزال فى إطار الحياة..؟

– إنها تزداد عمقاً تدريجيًا.

وتسأل إليزابيث ذات يوم الشبح النورانى:

– هل تبعث من جديد أنت أيضا؟

– نعم.. يجيبها الصوت الداخلى.

– وهل تعرف فى أى صورة؟

– بالطبع.. سنُبعث (يتكلم عادة بصيغة الجمع) فى صورة طفل يموت جوعاً.

وتتساءل إليزابيث بعد أن صدمها الرد:

– ماذا؟ هل يوجد فى العالم صورة أكثر بشاعة وغرابة؟. ويرد الشبح:

– بالعكس.. إننا نحتاج لمثل هذا التصور.

– لماذا بحق السماء؟

– لأنه يزيد من إحساسنا بالرحمة والرأفة.

ولك أن تتخيل عزيزى القارئ الأثر المفجع لحديث إليزابيث عن الرؤيا والشبح من منبر ضخم أمام جمع من الناس لم يسمع من قبل بهذه التجربة الغريبة.

إن الأمر سيكون أشبه بكارثة خاصة فى أوروبا وفى باريس إذا ما ارتجلت خطابها حول هذا الموضوع.. فالمشاهدة العملية هى وحدها الكفيلة بإقناع الجمهور.

لم أكن حتى الآن قد شاهدت إيكر أو البطلة الأولى فى هذا الكتاب.. سأذهب لأتعرف إليها فى صومعتها الخاصة ولأكتشف التحول الذى يحدث للمعذبين والذى يصعب التحدث عنه وصياغته فى كلمات.

ذكريات فى غرفة الدموع

كانت الفرصة الوحيدة للقاء إليزابيث كوبلر – روس هى حضور ندوتها الشهيرة «الحياة والموت وفترة الانتقال بينهما».

كان لابد من الحجز مقدماً قبلها بشهور.. فبعد عشرين عاماً من ندوتها الأولى كانت عبارة «كامل العدد» تميز جميع ندواتها. وكنت من المحظوظين إذ حصلت على المكان الأخير الذى تتركه إيكر احتياطيا لأى زائر غير متوقع.. وهكذا جاءت الفرصة فى يناير ١٩٨٤ .

تحدثت عن بداية هذه الندوة فى الفصل الأول حيث دارت أحداثها فى إحدى الأديرة فى شلالات وابينجرز على بعد خمسين كيلومتراً شمال نيويورك. استغرق استعراض المشاكل اليوم الأول.. كان كل شخص يقوم بدوره بتعريف نفسه ومشكلته للآخرين.

تميزت الروايتان الأولى والثانية بالفتور.. وهما لسيدتان تتسمان بالسُمرة والحيوية وتعانيان من آلام جسدية. وتذرعت بالصبر لاضطرارى للاستماع ساعات طويلة لمثل هذه المشاكل الخاصة المملة لحوالى مائة شخص.

كانت إيكر تستمع فى صمت دون أى تعليق.

وعندما قامت فجأة المرأة الثالثة شدت أنظار الجميع منذ البداية.. فهى بلا منازع أجمل السيدات فى الندوة.. نحيفة ذات عينين زرقاوتين وشعر أحمر طويل يتدلى حتى أسفل ظهرها.. كانت تبدو خلال الساعات الأولى غير مبالية بما يحدث حولها، والآن أصبح عليها أن تكشف عما يدور فى أعماقها أمام الجميع. بصعوبة التقطت الاسم.. فقد كان كلامها مختلطاً بالدموع.. تدعى

باتريسيا.. جاءت تبكي زوجها الشاب الذى مات بعد صراع مرير مع المرض ولم يكن قد تجاوز عامه الثلاثين.

وجلست الأرملة الشابة وقد عصف بها الألم.. مغمضة العينين تنتحب فى صمت بعد أن رفعت حدة التوتر، فجعلت أعصاب الجميع مشدودة وظلت كذلك دون أن تسترخى ثانية طوال أسبوع كامل.

بين الحين والآخر يحكي شخص قصة مأساوية تهز كياني، فى البداية لم أكن أفهم كل ما يقال، فأذنى لم تكن قد اعتادت بعد اللهجة الأمريكية فى حالة البكاء والانتحاب.. ثم بدأت الكلمات تصدمنى: «لا أريد أن أموت».. قالها أحدهم وهو يصرخ من آلام السرطان الذى ينهش عظامه وأحشاءه، وقالها آخر وهو فى حالة انهيار بعد أن تمكن منه مرض الإيدز اللعين.

«أعيدوا إلىَّ طفلى» جملة ترددت أيضاً على لسان الآباء والأمهات الذين فجعوا فى وفاة أطفالهم.. منهم من رأى طفله يغرق أو يحترق أو يختنق دون أن يستطيع له شيئا، ومنهم من عثر عليه مشوها فى أرض مهجورة بعد غيابه عن المنزل.

بكى بعض الرجال رفقاء السلاح الذين رأوهم يموتون وسط النيران فى الحروب.. وتذكرت بعض النساء فى حرقة حبها الضائع بعد أن اختطف الموت الحبيب، وآخرون عذبهم فراق الأهل دون كلمة وداع أوصفح أو قبلة، أو حتى نظرة أخيرة، كانوا يودون لو اعترفوا لآبائهم وأهليهم بحبهم وأنهم سيفتقدونهم للأبد.

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة حين استمعنا إلى القصة الأخيرة فى قائمة الحاضرين، كان الإجهاد بادياً على الجميع ولكن اليوم الملىء بالأحداث أحدث تغيراً بداخلنا وزاد من فضولنا لترقب المفاجآت التى تظهر فى كل رواية.

بدأت الطقوس أو المعالجة الحقيقية فى اليوم الثانى، لم أدرك فى البداية على الفور ما يحدث، فقد جاءت سيدة بدينة فى الخمسين من عمرها تشوب

وجهها حمرة واضحة، وركعت على ركبتيها أمام المرتبة فى وسط القاعة.. فى زاوية جانبية بالنسبة لإيكر وعيون اثنين وتسعين شخصاً تحدق فيها.

كانت امرأة أمريكية عادية ترتدى ملابس سبور وكأنها فى أجازة.. بنطلون جينز أزرق ضيق، وبلوزة بيضاء من النيلون الشفاف، طلب منها أن تنزع نظارتها وحذاءها ثم تبدأ فى رواية قصتها.

فى صوت هادئ خفيض حكت السيدة عن طفولتها، كانت أمها مريضة ووالدها رجل ضعيف فعهد بها إلى جدتها التى كانت تتلذذ بتعذيبها عن عمد أو بغير قصد: فعندما كان يجىء والدا الطفلة لزيارتها فى إجازة نهاية الأسبوع كانت الجدة تحبسها فى غرفة أخرى «حتى يستطيع الكبار أن يتحدثوا بحرية وهدوء».

كانت الطفلة تتمنى أن تقفز على قدمى أبويها وتحتضنهما ولكن الجدة كانت تمنعها، ولا تتركها معهما سوى لتحيتهما عند المجىء أو لتقول لهما وداعاً.

عانت الطفلة بشدة، وكانت تكتم حزنها فى صدرها، وترفض أن تلهو فى الحديقة، ولم يكن بإمكانها حتى البكاء، كانت دموعها تتحجر فى مقلتيها من شدة الغضب حتى إذا ما ذهب أبواها انسابت كالسيل فيزيد ذلك حنقها على جدتها.

راكعة على قدميها فوق المرتبة.. بدأت السيدة البدينة تتأرجح للأمام وللخلف، وكأنها تعانى من تقلصات فى الظهر والفخذين. وتغير صوتها عندما بدأت تتحدث.. لقد أخذت انطباعاً بأنها مدفوعة إلى ذلك بسبب هذا العلاج النفسى الذى يعتمد على رغبة المريض وحرصه إراديًا على الشفاء، ولكنها ما كادت تبكى حتى بدأت أعيد تقييمى للأمر، وعندما أخذت تصرخ وهى تتذكر محنتها، شعرت بأننى حكمت على الأمور بسطحية.. لقد تغير كل شىء مع نبرات صوتها فعادت الطفلة الصغيرة التى منعت من رؤية أبويها فى الإجازة وانفجر بركان الغضب بداخلها نحو جدتها المتشددة.

همست إيكر بجملة لم أدرك معناها على الفور.. قالت: «قولى كل ما تريدين لجدتك.. إنها هنا أمامك».

اجتاحت المرأة حمى من الغضب، وأمسكت بمطرقة أمامها وأخذت تكيل الضربات للمرتبة بعنف وهى تصرخ، وبدت أكثر قوة وصحة بعد أن مزقت جدتها إرباً، أو هكذا خُيِّل إليها، ثم زادت حدة غضبها فجأة.. لقد رأت أبويها.. وجوههما بائسة وهما يقبلانها عندما تحين ساعة الفراق والوداع ولكن هل كانا فعلاً فى حالة يأس وحزن؟.. لا!.

إنهما كلاب! تركاها وهما يعلمان تماماً أنها فى محنة. كانت هناك دائما النظرة المتخاذلة فى عين أبيها وهو يقول لها: «فى المرة القادمة سنتحدث كثيراً يا بيتى»، ولكنهما ضعيفان مذنبان يتسمان بالجبن والتخاذل.. أمام قانون جدتها القاسى الذى لا يرحم إنها تكرههما أيضاً، فتصرفهما يؤكد أنهما من الممكن أن يبيعاها.

زاد غضب السيدة البدينة وبدت وكأنها تحطم وجوه أبويها وأسنانهما، ووضعت إحدى مساعدات إيكر دليل تليفون قديم تحت المطرقة.. فتطايرت أوراقه وتناثرت وسط صراخها وأنينها. ثم بدأت السيدة تلهث، ويفتر غضبها وأخذت تتصبب عرقاً.

كان قلبها يدق بمعدل مائة وخمسين مرة فى الدقيقة.. نسيت تماماً هذا الحشد الذى ينظر إليها، وانخرطت فى البكاء وهى لاتزال راكعة على ركبتيها وقد انحنت للأمام تتنازعها موجات شديدة من الحزن. إنها تشعر وكأنها فى الثامنة من عمرها وتفكيرها كله مركز على غياب والديها.. لقد كانت تتمنى أن تحبهما.. أن تقفز بين ذراعيهما.

الآن أعطوها وسادة احتضنتها وهى تتأوه وظلت على تلك الحالة لفترة، وساد الصمت القاعة وخيَّم عليها جو مأساوى..

حتى الآن لم يخرج الأمر عن كونه جلسة جماعية تقليدية للعلاج النفسى قد تنجح أولاً فى أن تمس شغاف قلبك.. ولكن ما كاد شبح الموت يطل برأسه بين الحاضرين حتى أخذت الأمور شكلاً آخر، وبدأت حتى المشاكل البسيطة تتأثر بالمناخ الدرامى الذى يغلب على الندوة.

ذهلت وأنا أتابع روايات الكثيرين من الرجال الذين تعرضوا فى طفولتهم للضرب الشديد من آبائهم، وكذلك بعض النساء اللاتى تعرضن للاغتصاب من الأب أو الأخ!. إنها مهازل لم أدرك من قبل حجم انتشارها.

قامت المرأة الثانية لتتحدث بدورها.. كانت شديدة النحافة تعانى من مرض فى القلب وتنتمى لأم ساقطة وأب سكير.

اندمجت المرأة فى الحديث عن مأساتها.. فثارت أعصابها وتشنجت عضلات ظهرها وتحشرج صوتها الأجش، لقد ضرب والدها ذات يوم أحد أشقائها ضرباً مبرحاً مما أدى إلى وفاته وصدمت الفتاة صدمة مروعة.. كم كان أخوها جميلاً ورقيقاً!.. لقد ظنت بأنها أصيبت بالجنون من أثر الصدمة.. فقد كان يصغرها بعامين.. فى الثالثة عشرة من عمره، حملوه إلى المستشفى حيث فاضت روحه دون أن تستطيع أن تودعه للمرة الأخيرة.

وهمست إليزابيث: «إنه هنا أمامك.. قولى له وداعاً». واندمجت السيدة النحيفة فى اللعبة، فتراءى لها أخوها وهو يبتسم.. وهو نائم.. وأخذت تحدثه، ثم ضمته إلى صدرها وقبلته وهى تبكى بينما جسدها كله يرتجف. هدأ التوتر تدريجيًا واستمرت السيدة تنتحب بشدة حتى انهارت واستسلمت لدموعها وهى ممددة على بطنها فوق المرتبة.

تحدثت السيدة أيضاً لأبيها الذى توفى منذ زمن.. تخيلته طفلاً قبل أن يدمن شرب الخمر ويصبح هيكلاً يترنح وتنطق عيناه بالكراهية والحقد. إنها تعانى من كراهيتها لهذا المخلوق الذى لاتراه أمامها سوى فى صورة طفل

تضمه بين ذراعيها بشدة حتى تكاد تخنقه، وهى تطبق بعنف على الوسادة التى أعطوها لها.

كان العاشر فى قائمة المتحدثين رجلاً من نيويورك.. أشقر ضخماً ذا شارب كثيف. جاء يبكى هفواته بعد أن أصيب بمرض الإيدز اللعين الذى لم تظهر آثاره بعد سوى فى رأسه الذى أصيب بالصلع، ولكنه كان يعلم حقيقة مرضه فقد كان مصاباً بالشذوذ الجنسى مثل معظم المصابين بالإيدز.

مر وقت طويل قبل أن يستطيع الرجل الانفصال عمن حوله.. ثم بدأ صوته يرتجف، ورأى نفسه حينما كان فى الثالثة عشرة من عمره وقد أخذ يعتزل الناس، بعد أن شعر بميله نحو بنى جنسه من الرجال وهو شىء غير طبيعى أو مقبول.

صرخ بداخله صوت يلعن شذوذه فعاد من جديد يرى طفولته.. طفل مخجل شائن محاط بأعداء يسخرون منه، وتستبد به الرغبة فى قتل نفسه.

قالت له إيكر: «تحدث إلى هذا الطفل».

أخذ الرجل يصرخ: «دافع عن نفسك أيها الصغير.. اضربهم.. حطم عظامهم!». ثم عاد بذاكرته إلى الوراء عشرين عاماً حينما مارس الشذوذ لأول مرة.. عندئذ اجتاحه غضب شديد وأمسك بالمطرقة التى أمامه، وانهال بها ضرباً على المرتبة بشدة كانت تجعل الحاضرين يقفزون من فوق مقاعدهم، كان يضرب ويلعن ويقتل الجميع: أصدقاءه القدامى.. هؤلاء المخادعين.. وأبويه ومدرسيه.

كانت المرة الأولى التى تثور فيها أعصابه بشدة، ويخرج عن وعيه وهو يتذكر مرض الإيدز اللعين الذى حرمه المناعة، فأصبح عرضة للإصابة بأى ميكروب، انخرط الرجل فى البكاء طويلاً فلم أفهم من كلامه سوى القليل.

قال إنه لازال فى ريعان شبابه.. فى الخامسة والثلاثين. وهو يريد أن يعيش.. إنه قد يموت من مجرد نزلة برد. «ياللهوان!. نتساقط كالذباب». قالها ثم

استدار فجأة تجاه مساعدة إيكر وصرخ فيها: «وأنتن أيتها الساقطات بأفواهكن البذيئة الخبيثة تقلن: «إنه لأمر طبيعي أن يفنى الشواذ» أليس كذلك؟ لاتنكرن ذلك.. ستقلن إنه مسطور فى التوراة أن الشواذ جميعاً ملعونون.. أليس كذلك؟.

توقف الرجل فجأة كأنما أصابته طلقات مدفع رشاش وارتمى على الأرض مخفيا وجهه بين يديه وهو ينتحب: «بوبى! أخى لم يعد موجوداً! لقد شوه الإيدز وجهه فأصبح قبيحاً مشوهاً.. آ آ آه...!»

زاد نحيب الرجل الأشقر حتى كاد يختنق من الألم، وكأنه يبكى مأساة جميع الشواذ المصابين بالإيدز. لم يكن هذا الرجل مجرد حيوان يسعى وراء نزواته، ففى إحدى مراحل حياته كان حسن السير والسلوك، فتزوج وأنجب طفلتين، إنه يناجيهما الآن.. يرى وجهيهما عندما علما بشذوذه وبأنه سيتركهما وأمهما ليعيش مع رجل آخر. كان عمرهما وقتئذ ستًا وثمانى سنوات، آه..! إنه يتذكر الوجوه الشاحبة التى بهتت من أثر الصدمة.. لقد هرب دون أن يقول شيئاً. كيف يواجههما وماذا يقول؟.

اجتاحت الرجل موجة من اليأس والحزن الشديد، وهو يفكر بأنه سيموت تاركاً وراءه طفلتين معذبتين بجرم والدهما.. إنه يشعر بمرارة هائلة، هذه المرة سيطر عليه الغضب رغماً عنه فأخذ يضرب وجهه ويصدم رأسه فى الأرض. تدخلت إحدى مساعدات إيكر ودفعته بهدوء فوق المرتبة، فارتمى فوقها منهاراً وهو يناجى طفلتيه ويرجوهما أن تغفرا له.

بدأ توتر الرجل يخف تدريجيا، و أمسك بالوسادة التى كان قد ألقاها بعصبية فى البداية، واحتضنها قائلاً «سأموت يا أحبائى.. سيموت أبوكما».

مر وقت طويل قبل أن أدرك مايحدث حولى.. تقول إيكر إن الأمر يشبه تفتق حبات الذرة بسرعة فوق النار (مثلما يحدث أثناء عمل الفشار): فجأة تشتد معاناة أحدهم وسط الحضور. فينتحب بشدة وقوة خلف ظهرى.. وتضطر إحدى المساعدات لاصطحابه إلى واحدة من «غرف البكاء» الثلاثة الإضافية..

هناك توجد نفس الاستعدادات: مرتبة ووسادة ومطرقة وأجزاء قديمة من دليل التليفون.

كانت دهشتى عظيمة فى المرة الأولى عندما فوجئت بشخص خلفى يبكى بحرقة وصوت عال صاخب. إنه فيليب.. جارى فى الغرفة.. هذا الغلام الساخر الصامد.. ماذا حدث له؟.. لقد أدمى قلبى أنينه الصارخ!.

اختلطت علىّ الأمور وسط هذا الكم الهائل من المآسى، لقد تأثرت برؤية معاناة الآخرين ولكن بعضها فقط مسّ شغاف قلبى لسبب أو لآخر بعد أن حركت لدى مشاعر وأحاسيس كامنة، وجعلتنى أفكر فى أمور لم تخطر لى من قبل على بال.

اعترفت سيدة شابة مصابة بالسرطان بأن حياتها أصبحت كريهة ومحطمة، منذ دأب والدها على اغتصابها بصفة مستمرة بعد أن بلغت الثالثة عشرة هاهى تستعيد ذكرياتها المؤلمة، وتطلق العنان لثورتها المكبوتة منذ سنوات، وتصرخ: «ابتعد عنى.. ابتعد عن جسدى» صدمتنى نبرات صوتها الصادقة فهربت الدماء من وجهى، وامتقع لونى وجف حلقى ولكننى لم أبك، لقد عانيت لمعاناتها ولكن المأساة لم تكن من ذلك النوع الذى يمكن أن يحدث فى نطاق حياتى.. هذا الأب المجنون المجرم المغتصب هو أبعد ما يكون عن شخصى.

قامت سيدة أخرى لتحكى فجيعتها فى وفاة طفلها وكأنها سددت خنجرها فى قلبى. مأساتها جعلتنى أبادر بالتفكير فى أطفالى. وتخيلت الموت يحوم حولهم.. فلم أتمالك نفسى ووجدتنى أنتحب بصوت عالٍ بعد أن وصلت إلى ذروة الإحساس بالشفقة على تلك المرأة.

فى مساء اليوم الثانى وبعد مضى حوالى ثلاث ساعات على خضوع فيليب لهذه الطريقة الغريبة فى العلاج.. رأيته فى قاعة الطعام. كان جالساً أمامى ولكنه لا يرانى وكأن به مس من الجنون. كانت ساندى – إحدى مساعدات إيكر – تجلس إلى جواره، وهو ينظر إليها ويملأ عينيه منها.. هل هو إعجاب

أم حب أفلاطونى؟! لقد كان فيل فى قمة السعادة، وكأنه طفل عثر على أمه بعد غياب عشرة آلاف سنة!

عندما استلقى فيل على سريره، أخذ يقص علىَّ حتى الخامسة صباحاً كيف تفجرت المعاناة فجأة بداخله دون أن يدرى.. ربما بعد أن استمع إلى غلام يتحدث عن «الفراغ الداخلى» المخيف الذى يزداد عمقاً بداخله كلما اقترب من الموت.. فقد كان مصاباً بالسرطان.

استطاعت كلمات الغلام فى ذلك الوقت أن تدمر فيليب من الداخل.. هو الذى كان يجهل بالفعل سبب مجيئه إلى هذه الندوة.. لم يكن مريضاً أو فى حالة حداد، لكنه أدرك فجأة كم هو جريح وحيد ومحبط من الداخل.. إن جميع أفراد عائلته فاشلون حاقدون منفصلون عن بعضهم البعض.

زادت معاناة فيليب حتى خُيِّل إليه أنه يواجه الموت وسيطر عليه حزن شديد، وكأنه يودع الحياة بالفعل.

لم أشاهد فى حياتى مثل هذا التحول السريع لدى شخص ما.. فقد فيليب روحه المرحة الساخرة فجأة وأصبح يراوغ فى الإجابة عن أى سؤال شخصى يوجه إليه. وفى الوقت الحاضر كشف عن إخفاقه والعار الذى تجرعه طوال حياته، إنه لم يفقد روح الفكاهة ولكنه تغير وأصبح إنساناً مرهف الحس بدرجة كبيرة يقدر ظروف الآخرين ولا يسخر منهم.. إنه شىء مدهش فعلاً.

فى نفس الليلة استمعنا لاعترافات أحد المحاربين القدامى الذين شاركوا فى حرب فيتنام، كان رجلاً أشقر ضخم البنية ذا حواجب كثيفة وصوت خفيض.. يجلس على السلالم فى أوقات الاستراحة يعزف الجيتار كان هو الوحيد الذى دعته إليزابيت علناً للركوع على المرتبة أمامها، فالباقون كانوا يتبعون ذلك النظام دون أن ينبههم أحد.

توقعت أن يراوغ المحارب القديم، ويتجنب الحديث المباشر عن اشتراكه فى عمليات القتل التى تمت أثناء حرب فيتنام، ولكنه بعد ثلاثين ثانية تكلم مباشرة ودون تردد.. رأسه مائلة إلى الأمام وعيناه زائغتان.

قال: «إننى أسترجع دائماً نظرات الأشخاص الذين قتلتهم وهم غالباً من الرجال، وأحياناً من النساء، وأيضاً الأطفال. ولكننا لم نكن نرى أو نحدد شيئاً فى معظم الأحيان، ونحن بداخل طائراتنا الهليكوبتر.. وفى بعض الأيام لم أكن أهتم على الإطلاق وكان الأمر كله لدى سواء».

تحدث بنبرة هادئة وهو يتطرق إلى مقتل الأشخاص وجهاً لوجه رغم قسوة الموضوع، كان حزيناً ولكنه هادىء متماسك حتى تذكر معسكره ورفاقه من الضحايا، فتغير كل شىء.. وكأنه أصبح شخصاً آخر.

قال: (لقد سقطت الطائرة الهليكوبتر وسط الغابات ذات الأشجار الكثيفة، ونجوت بأعجوبة ولكن الطائرة أخذت تغوص فى المستنقع. كان «كريس» زميلى مقيداً فى كرسيه بحزام الأمان، وبدأ يغرق تدريجيا فى الوحل مشيراً إلىّ بإشارات يائسة من رأسه. ولكنى كنت مصاباً بشظايا فى ركبتى فلم أستطع له شيئاً.. لا شىء على الإطلاق (بدأ يبكى بصوت عال).. لا شىء سوى مراقبته ببلاهة، وهو يغوص أمامى فى المستنقع.. كريس! أيها المسكين.. كريس! (الآن غمرت وجهه الدموع)، كان يعلم أنه هالك وكانت الدماء تسيل من فمه، ولكننى رأيت الصمود فى عينيه.. إنه غلام متعلق بالحياة.. لازال فى العشرين من عمره (وبدأ كثير من الحاضرين يبكون معه).. لقد أخذ ينتحب وأنا هناك محاصر وسط الأشجار أرتجف ولا أستطيع شيئاً.. لماذا يحدث ذلك؟.. لماذا؟.)

أمسك المحارب القديم المطرقة بعنف وهوى بها على المرتبة بكل قوته، لقد انفصل تماماً عمن حوله وبدا وكأنه لا يرى سوى نفسه ومأساته.. جن جنونه

من الغضب، فأخذ يصرخ كالثور الهائج واللعاب يسيل من فمه.. لم يعد يعرف أين هو وماذا يمنعه من ضرب من حوله حتى يهدأ ويتخلص من معاناته؟..

وانتقل فجأة من الحديث عن موت زميله إلى «حياة الكلاب» التى عاشها طوال عمره وضرب والده له بالكرباج. استرجع المحارب بدوره طفولته، فتغير صوته وتحدث كطفل مستخدماً جملاً قصيرة متقطعة يتخللها بكاء ونحيب. كانت طفولة بائسة مليئة بالأحداث الدرامية، أخذ يبكيها بصوت غلام حزين. إنه يرى نفسه فى الثانية عشرة من عمره عندما علم بأن أبويه انفصلا..

ظل ينتحب لمدة نصف ساعة.. لم يعد يخرج من بين شفتيه سوى صوت رفيع وهو مستلقٍ كأنه يمسك بزناد بندقيته وحوله تسعون شخصاً يتنفسون بصعوبة مثله.. لاصوت أو حتى همسة وكأنه قد جذبنا معه إلى وادى الدموع كانت الساعة قد قاربت الواحدة إلا ربعاً صباحاً، وقد خيم السكون الشامل بينما تمطر فى الخارج وترتطم قطرات المياه بالزجاج.

وبدءاً من اليوم الثالث أصبح البكاء مستمرا.. على يسار إيكر كان يجلس دائماً على الأرض رجل طويل نحيف ذو شارب مهذب تحمل قسماته حزناً هائلاً.. وقد ثنى رجليه وبسط ذراعيه.. كفّاه على الأرض ورأسه محنية يرفعها من حين لآخر، ليلقى نظرة على المتحدث الجالس على المرتبة عندما يبدأ فى إخراج ما فى جعبته من مآسٍ. وفجأة أخذ ينتحب بشدة.. ومنذ تلك اللحظة ونحن ندور فى ساقية الأحزان دون توقف.

وتتابعت الأحداث المبتورة غير الكاملة على المرتبة.. وتقدم شاب أشقر على وشك الموت خجلاً قبل أن يموت لضعف قلبه، لماذا كل هذا الخجل؟.. لأن سجل حياته غير مُشرِّف وكل مشروعاته توقفت بسبب ضعف إرادته، والآن ينتظر الموت دون أن يحقق شيئاً.. حتى الحب الكبير لم يعرفه. أخذ الشاب يتلوى كدودة منقسمة إلى نصفين وأصابعه تمسك بشدة بقماش المرتبة، وكأنه ينزعه عنها حتى هدأ أخيراً وغاص فى ظلمات الضعف. ونحن جميعاً حوله

ندرك ثقل وغموض التأرجح العاطفي الذى يعانيه.. ونتأثر فى كل مرة يبلغ ذروة الغضب ويصرخ ويتلوى زاحفاً على بطنه حتى يهدأ وينكمش ويتنفس كطفل، وقد فقد قدرته على المقاومة وكأنه شيء محطم قذفته على الشاطىء أمواج «الأذى» القادمة من محيط الفضاء.. وهكذا بدأت أفهم ببطء بعض الحقائق القديمة.

لقد أفرغ الكثيرون حقائب أحزانهم وتخلصوا من همومهم المخزونة فأضاء ما بداخلهم.. كلما زادت آلامهم كلما صفت نفوسهم وامتلأت بكنز أحسدهم عليه.. كنز من الهدوء وعدم المعاناة أو الحقد.. بل حب غير مشروط للحياة لا يدركه إلا من سبق له المعاناة ووصل إلى هذه المعرفة.

لم أكن أعتقد أبداً أنهم يستطيعون التعبير عن هذه الحقيقة المحسوسة.. لقد أشرقت وجوههم بعد ما تخلصوا من حملهم الثقيل، أما أنا فقد شعرت فجأة بأننى لست على مايرام منذ اليوم الثالث.. وقلق غريب يسرى فى عروقى. وفى عصر اليوم الرابع بلغ الألم حداً جعلنى ألعن اللحظة التى قررت فيها بكل غباء حضور هذه الندوة.

أحسست كأن كتلة من الرصاص تملأ صدرى، فخرجت أتجول فى الغابة المحيطة.. أستمع لصوت طرقعة الجليد تحت أقدامى وألتمس الراحة فى الحديث مع الأشجار.. ولكن كل هذا لم يُجدِ، فبمجرد عودتى تلاحقت الأفكار السوداء فى رأسى وأخذت أسترجع طفولتى وأحقادى بما فيها حنقى على نفسى. وعلى حين غرة شعرت بشيء يتحطم بداخلى وانخرطت فى البكاء والعويل وأخذتنى ساندى «مساعدة إيكر» إلى إحدى الحجرات الجانبية، وأمسكت بالعصا الشهيرة وحطمت ما أمامى، وزال عنى ضيق التنفس بعدها. لم تكن آلامى بنفس العمق الموجود لدى الآخرين المشاركين فى الندوة.. وقد مكننى هذا الهدوء النفسى من متابعة التحول الرهيب فى زملائى.

كان التحول العجيب واضحاً بلاشك فى حالة الأرملة الشابة ذات الشعر الأحمر الطويل، وعندما جاء دورها ركعت «باتريشيا» أمام إيكر وانفجرت فى البكاء وكأنها تسبح فى أعماق وادى الدموع. إن زوجها والرجل الوحيد فى حياتها قد مات دون الثلاثين من عمره، ولكن بداخلها رفض كامل لفكرة اختفائه. فقد اندمجت روحاهما ولا يمكن أن تنفصلا، ولقد شاء الله أن يموت زوجها حتى تجمع بينهما أجمل وأقوى علاقة.. علاقة الحب الخالد الذى لن يموت أبداً، لقد بدأت بينهما حياة جديدة وأخذت تردد «هذا شىء جميل.. هذا شىء جميل».

انفجرت باتريشيا فى بكاء مستمر دون توقف حتى أن «إيكر» طلبت من إحدى مساعديها أن تصحبها إلى حجرة أخرى. وتظل ترعاها حتى يتوقف هذا السيل الدافق من الدموع، وخرجت «باتريشيا» وقد اكتست ملامحها بالحزن والألم العميق وأحست بالخوف وتساءلت هل استطاعت إيكر بهذا أن تدفعها إلى طريق جديد.. فالفشل قد يؤدى إلى وفاة باتريشيا من شدة الحزن. ظلت باتريشيا تبكى طوال الليل وصباح اليوم التالى، وبعد الظهر اعتقدت مارلين «مساعدة إيكر» أن حالة باتريشيا تسمح لها بالعودة إلى حضور الندوة، ولكن بمجرد دخولها إلى الصالة انهارت الأرملة الشابة، وانهمرت دموعها مرة أخرى واضطروا إلى الخروج بها مرة أخرى، وقلت لنفسى: «بعد هذه المرة لن يحضرها هنا أبدا».. ونظرت إليها كمجنونه تمحو كل أحزانها بالدموع.

وفى المساء الأخير تجمع الحاضرون للحفل كما تقضى الطقوس المتبعة فى هذه الندوات، وظهرت باتريشيا بوجه ساكن وطلبت بصوت هادىء أن تتكلم، وأخذت تقرأ دون بكاء أو انفعال الخطاب الأخير الذى أرسله إليها زوجها قبل وفاته.. كان خطاباً رقيقاً يحمل معانى سامية مما جعلنى أندم على ظلمى لهذه الأرملة الشابة. فقد أدركت مثل الباقين أنها لا تقوم بحركات تمثيلية، وأن الحب الذى فقدته حب كبير وعظيم زاخر بالعاطفة والروحانية. وأسفت

كثيراً لأننى أقسمت لها بعدم نشر هذا الخطاب.. إننى أحتاج إلى كتاب كامل لأسرد فيه كل التطورات التى حدثت فى «وادى الدموع» تحت رعاية إليزابيث الصادقة والشاملة، فهناك قصة «نانسى» من بوسطن التى تركت لدىّ انطباعاً قويًّا وكشفت عن شجاعة متناهية بداخلها، وهناك «جاكلين» الفرنسية المصابة بالسرطان والتى تتحدث الإنجليزية بلهجة غريبة، وهناك «ريتا» الفلاحة الضخمة ذات السبعين عاماً، والمصابة بتصلب الشرايين، والتى حاربت بضراوة منذ اليوم الأول الخوف من الموت القريب، ولكنها فى النهاية أضحكت الجميع وهى تصف الجنازة الأيرلندية التى تتمناها لنفسها، وأذكر خاصة «جرميا» و«ديبورا» و«شاك» و«كارول» و«كاثى» فكل واحد أو واحدة منهم فقد طفلاً ولم يستطع أبداً تجاوز هذه المحنة.

ركزت إليزابيث روس اهتمامها على الجميع فهم يمثلون الحلقة الضعيفة فى سلسلة الآلام التى يقاسيها الغربيون فى مواجهة الموت، ويعتبرون النزلاء المفضلين فى منزل إيكر فقد خصصت لهم الجزء الأكبر من المكاشفة النفسية لأعماقهم والتى كانت تتم كل صباح، ولمدة أسبوع قبل أن ننزل جميعاً إلى وادى الدموع.

وفى اختبار وضعته إيكر كان على كل منا خلال ربع ساعة أن يرسم بالألوان على ورقة كل ما يدور برأسه، وفى المساء تشرح إيكر «المفاتيح» التى يمكن بها ترجمة ما رسمناه على الورقة والألوان التى اخترناها، ولن أقول شيئاً عن هذا الاختبار إلا أن الموت وهو المقصود منه.

إن الأطفال المشرفين على الموت يدركون ذلك ويحسون بآلامهم ويعبرون عن هذا الخطر برسوماتهم، وقد أظهرت اللوحات أمثلة صارخة لذلك.. فالطفل قد يعبر عن موته برسم سقوط شجرة أو شخص يغرق أو حادثة سيارة، والأغرب من ذلك أن بعض رسومات الأطفال كانت تعبر عن الخطوة التالية، أى بعد سقوط الشجرة أو حادث السيارة، وهى قفزة كبيرة فى «النور».

فى البداية كانت إيكر تستعمل عبارات غامضة لتفسر أن هذه الرسومات تشير للأطفال المشرفين على الموت، وأن هؤلاء هم أفضل زبائنها، وهى تعتقد أن فقدان طفل قد يخلق لدى الآباء تنبهاً روحانيا حقيقياً لذلك كان عليها أن تفتح قلبها لآباء الصغار الذين اختفوا من الحياة حتى تستطيع أن تضع حداً لمشاعر التشاؤم والعذاب النفسى.. لأنها تقف حائلاً أمام الإحساس بهؤلاء الغائبين الذين انتقلوا إلى مملكة الرحمة.

بمرور الوقت عرف الكثيرون «وثبة النواح» وبدأت «إيكر» تسمح ببعض التلميحات الجريئة عن هذا العالم الخفى «العالم الآخر» الذى يمثل فيه «وادى الدموع» المدخل الرئيسى وعنق الزجاجة والممر.

والحق يقال إن العالم كله بما فيه الأشخاص العاطفيون الأكثر تأثراً بالأحداث من حولهم لا يستطيع أن يتابع للنهاية القصص الخيالية للأم الروحية «إيكر».. وقد يتخيل البعض أنها تحاول غرس بعض الخزعبلات فى معتقدات هؤلاء الناس الذين تهيأوا نفسيًا من قبل بالهزة العاطفية.. ولكنه أمر مستبعد لأن الوسط المحيط لا يسمح بذلك، فعندما تبدأ «إيكر» فى الحديث عن أرواح الأطفال الموتى، أو عن الأشياء التى مرت بها فى مراحل مختلفة من حياتها فإنها تشرح بلهجة من الصرامة المرحة تلك التجارب الغريبة.. لهجة تماثل الطريقة المميزة للممثل الأمريكى «وودى ألن».

وهى لا تجد مشكلة فى إقناع الآخرين، إنها تساعد التعساء الذين يواجهون الموت بأن يتذوقوا حلو الحياة من خلال حديثها عن تجاربها الخاصة على حدود العالم الآخر، وما تعلمته فى حياتها الحافلة. لقد تابعتها من بعيد وكان اعتقادى – بأننا نحيا أسطورة حية ضرورية لصحوة الإنسان – يدخل الجرأة إلى نفسى ويجعلنى ألعن الشح العاطفى والبخل فى العطاء المعنوى لدى الجيل الجديد.

كان حماسى الشديد يخفف بؤسى الحقيقى.. كان الألم يعتصرنى عندما يتعلق الأمر بالأطفال ولذا لم يحتو هذا الكتاب على أى فصل بخصوص هذا

الموضوع «وفاة الأطفال».. إنها نقطة ضعفى. وقد حدثتنا إيكر لساعات طويلة عن وفاة الأطفال وعن «ليندا» الصغيرة من دنفر المصابة بمرض اللوكيميا «سرطان الدم» والتى بدأت بها إليزابيث ندواتها عام ١٩٦٥.

حتى كتاب «الموتى فى الأرض» بدأ برسومات الأطفال فى معسكرات الاعتقال فى ميدانك. تقول إليزابيث إن أقوى الدروس التى تلقتها فى حياتها كانت من الأطفال أقل من عشر سنوات، لقد أمضت ساعات طويلة فى الحديث معهم عن الموت والحياة..، (تم تصوير بعض هذه اللقاءات). وقد ذكرت ذلك فى كتابها «الأطفال والموت» حيث أفرغت كل تصوفها وحكمتها فى هذا العمل من أجل الآباء المكلومين. فعمل إليزابيث يهدف أساساً إلى مساعدة آباء وأمهات الأطفال المحتضرين لأنهم لا يستطيعون تقبل موت أطفالهم كأمر حتمى.

وقد كشف حوار إليزابيث مع الأطفال المحتضرين عن سذاجتنا نحن الكبار فى مواجهة الموت.. فعندما بلغ الحوار القمة وأصبح حواراً مفتوحاً وهادئاً بدا هؤلاء الأطفال حكماء يتقبلون قرب الرحيل برضا وسكينة يعجز عنهما الكبار.

الهزل والسخرية من أى شىء وكل شىء.. شعور ينتاب من هم على شفا الموت. سيكون هذا هو موضوع الفصل الأخير فى هذا الكتاب. لقد جعلتنى تجربة «الاقتراب من الموت» أدرك الطريقة الغريبة التى يستطيع بها الأفراد المشرفون على الموت فهم الإحساس الهزلى الغامض الذى يمرون به فى لحظات النهاية.

الحلقات المرعبة

فى البداية لم أفهم تماماً وضع نانسى بوش فى مؤسسة «إياندس». إنها سكرتيرة تنفيذية، ولكنها أيضا تهتم بالتنظيم والناحية الإدارية, وتعمل بنصف راتب.. هكذا أخبرنى رينج.

والآن تحادثت معها لمدة ساعة فى مكتبها الصغير بجامعة كونيكتيكات.. شقراء ممتلئة فى الخمسين من عمرها، تعطيك انطباعاً بأن الدموع لا تجف من عينيها. كانت عباراتها غامضة يسكنها الشك.. تختلف تماماً عن النبرة الحاسمة والواضحة التى يتحدث بها رينج والآخرون من أعضاء إياندس، والحق يقال إننى عزوت لهجة الشك إلى انضمامها الحديث للمؤسسة، واهتمامها الجديد بحالات الوعى لدى المحتضرين. ولكن هاهى تحكى بصوت خافض أحد الكوابيس المخيفة، وفى ثوان معدودة، تحولت نانسى إلى شخص آخر وبدت متشككة فى فاعلية المؤسسة التى تشارك فى إدارتها، وبدا كل ما يتعلق بتجربة إن. دى. اى مهدداً بالانهيار وكأنه قناع بائس على وشك السقوط.

تنحدر نانسى بوش من عائلة ريفية صلبة يتصرف أفرادها على سجيتهم، وهم من الأمريكيين الذين هزتهم بشدة جريمة اغتيال جون كيندى والأحداث التى تلتها، وقد اعترى نانسى بوش منذ هذا الحدث شعور بالسوداوية (الكآبة الحزينة) ولعدة سنوات شملت أولادها الثلاثة بكل الرعاية بعد انفصالها عن زوجها وبدأت تعمل من جديد بعد انقطاع طويل عن العمل، وكانت البداية طيبة فقد بدأت بإدارة برنامج اجتماعى ضخم فى هارتفورد ترأس فيه ستين موظفاً فى مبنى مكون من ثلاثة أدوار.. وبالتدريج ذهبت عنها الأفكار السوداوية.

ارتبطت نانسى بعملها بشدة ومارسته بشغف، وفى عهد ريجان تم اقتطاع أجزاء كبيرة من البرامج الاجتماعية، ولكن نانسى انحازت للعملاء ضد رؤسائها ففقدت ثقتهم وبعد ثلاثة شهور وجدت نفسها فى الشارع، وعادت إليها السوداوية وسيطر عليها شعور فظيع أنها خانت جميع المنتفعين بالإعانات الاجتماعية وحرمتهم منها. ومع اقتراب سن الخمسين أخذت دوامة عنيفة تشدها نحو الأعماق، ولم تعد تملك مليماً فباعت منزلها.. ومرت عليها سنتان من الاكتئاب العنيف وتفرغت لأطفالها حتى بدأت ابنتها الصغرى تبحث عن عمل ونانسى تساعدها فى البحث من خلال الإعلانات المبوبة.

وفى أحد الأيام قرأت نانسى إعلاناً غريباً بتوقيع إيانديس.. كان الباحثون من مكتشفى أسرار الموت فى حاجة إلى إدارى خبير لإعادة تنظيم المؤسسة ولكن بمرتب رمزى، وانفجرت نانسى – التى حاصرتها ظروف لا تحتمل – فى الضحك واتصلت بالدكتور رينج لتحديد موعد دون أن يكون لديها أى فكرة عما ينتظرها.

وفى مكتب رينج تقابلت مع بعض أصحاب تجربة إن. دى. اى وكانوا جميعهم من الناجين من الموت بعد بلوغ المرحلة الخامسة وقد دعاهم رينج إلى سرد تجاربهم وتطرق الحديث بالطبع إلى النور المبهر والحب اللانهائى والعاطفة الجياشة..

وهبت نانسى فجأة وهى ترتعد وقد بدت شاحبة اللون: قاومت لمدة خمس دقائق ولكن الأمر كان أقسى من قوة احتمالها. فاندفعت المديرة الجديدة خارج الحجرة حتى بلغت مكتبها الصغير وهى تنتحب بشدة. وتبعها رينج مندهشاً: ماذا حدث؟!.. وأمسك بكتفيها متسائلاً عما بها ولكنها لم تستطع الإجابة.. وبعد أن توقفت عن البكاء اعترفت له أنها فهمت شيئاً غامضاً.. فقد هزت شخصيا بحالة إن. دى. اى، وسيطرت عليها هذه التجربة عدة سنوات كافحت خلالها بقوة لتدخلها فى أعماق ذاكرتها وتنساها. إنها لا

تدرى ماذا حدث فهى لم تسمع من قبل عن شيء مماثل، وامتنعت عن الحديث فى هذا الموضوع أو محاولة سماع أى كلمة عنه.. ولم تكن تتوقع أن ردها على هذا الإعلان سيوقظ هذه الأحاسيس لديها، والآن وقد عادت الذكرى لا تعرف إن كانت تستطيع أن تعيش حياتها من جديد فى سلام.

وقاطعها رينج بصوت خفيض وكأنه يتحدث إلى طفل: «ولكنى لم أفهم بعد يا نانسى.. إننا نعلم منذ فترة أن كثيرين من أصحاب هذه التجربة يتألمون عندما يتحدثون عنها.. وهذا جنون.. فكل هذا الحب والجمال...» وقاطعته نانسى قائلة: «اسكت فأين هذا الجمال وهذا الحب؟ توقف عن هذه السخافات.. إن تجربتى بشعة منذ بدايتها».

واستمرت نانسى بوش ترتعد والصور تتتابع فى رأسها، وفجأة انتصبت واقفة، وغاصت عيناها فى عالم آخر غامض وغلّف ذهنها وضوح شديد، وهى تتذكر كل هذا الحزن وهذه السوداوية التى حطمتها طيلة هذه السنوات، كما أن برودة العواطف التى سيطرت عليها فى أحلى سنوات عمرها أنهت زواجها.. وقد بدأ كل هذا عندما عاشت تجربتها الرهيبة.

كان هذا عام ١٩٦١ أثناء ولادة طفلها الثانى.. كانت ولادة مؤلمة إلى حد لا يحتمل حتى أنها تمنت الموت.. فقد استمرت آلام المخاض لمدة عشر ساعات وكانت تقلصات الرحم مثل ضربات حادة تشعرها بالاختناق وأنها على حافة الموت.. كاد قلبها المنهك أن يتوقف ولم تعد لديها القدرة على دفع الجنين لأسفل، وهكذا فقدت تقلصات الرحم فاعليتها وأصبح الجنين فى خطر.. فهو فى منتصف الطريق ولم يعد بالإمكان إجراء عملية قيصرية لانتشاله وارتبك الطبيب أمام الحالة المتعثرة.

وعلى حين غرة حدث هبوط مفاجيء فى ضغط الدم وأغمى على نانسى وشعرت بأنها تطفو خارج جسدها فى ليل مظلم حالك السواد تحوطها من كل جانب مئات الحلقات.. سوداء وبيضاء.. تتحول السوداء إلى بيضاء

وبالعكس، يا للذكريات اللعينة!.. كانت هذه الأشياء كأنها تسخر منها بحركتها المستمرة.

سأل رينج: كيف كان ذلك؟.

«هذا شيء يصعب شرحه» تمتمت نانسى.. «ولكن سرعان ما فهمت، كانت رسالتهم إلىّ واضحة: (ليست الحياة سوى مزاح والواقع أنك لم تتواجدى مطلقاً، ولكنك توهمت نفسك موجودة مثل فقاعة من الهواء فوق سطح بالوعة.. إنك مجرد وهم). وقد حاورتهم قدر استطاعتى وأنا واثقة تماماً من حياتى ومعتقداتى، فهناك حبى ووالدىَّ وابنى الأول ووطنى ولكن شيئاً فشيئاً انهارت صلابتى فى المناقشة تحت نظراتهم الساخرة. وببساطة فإن الحركة المستمرة لهذه الأشكال الهندسية هدمت حياتى، فأحسست بوحدة قاتلة وامتلأت حزناً ويأساً.

فى هذه الأثناء كان الطبيب يحاول رفع ضغط الدم عندى وأفقت لأجد ابنتى قد خرجت إلى الحياة ولكن فى حالة سيئة. وفى الأيام التالية كان الجميع يعتقدون أنها السبب فى الحالة التى أصابتنى فيما بعد ولكن لا.. لقد نجت ابنتى ولكن ظل هذا الكابوس يلاحقنى وظلت هذه الأشكال تنهشنى منْ الداخل حتى اعتقدت أن حياتى انتهت تماماً.

وبعد بضعة شهور عادت نانسى لطبيعتها وأصبحت قادرة على مزاولة حياتها اليومية، حتى كان ذلك المساء بعد خمس سنوات (عام ١٩٦٦) عندما كانت لدى بعض أصدقائها وأخذت تتصفح كتاباً عن الرسومات الشرقية, وفجأة اندفعت فى الصراخ كأنما وجدت عقرباً كبيراً على ركبتيها وسقط الكتاب من بين يديها.. وذهل الجميع وهى تردد فى ذعر: «هنا.. هنا..» ولم يفهم أحد ماذا تعنى، ومن يستطيع إدراك مصدر الرعب فى هذا الكتاب الشرقى؟! إنه يحتوى على نفس الشكل الذى رأته فى تجربتها الغريبة: الحلقات السوداء والبيضاء المتداخلة المدمرة: إنها بكل بساطة الرمز الصينى للسالب والموجب «ين ويانج».

لم تكن نانسى بوش تعرف شيئاً عن هذا الشكل قبل الولادة وحين أدركت أن هذه الحلقات لها اسم وتعنى شيئاً فى الحضارة الإنسانية انتابها الخوف والذعر، إنها حقيقة إذاً وليست مجرد هلوسة. ربما عرف بعضهم هذه الخيالات الغريبة تحت تأثير عقار الهلوسة، ولكن نانسى بوش كانت أبعد الناس عن هذا فأخذت تردد لنفسها: «إنها حقيقة».

وأخذ رينج يتساءل فى قلق واضح: «وما هى هذه الحقيقة؟». تقول نانسى إن الفلاسفة الوجوديين الفرنسيين أمثال سارتر وكامى وكل الفرنسيين الذين انتابهم الحزن بعد الحرب وأخذوا يقولون إن الفوضى هى القاعدة كانوا على حق.

– «ولكن بحق الشيطان ماذا تعنى علامة السالب والموجب (ين ويانج) هنا؟»

– «ألا ترى ذلك.. أنه أمر واضح، إن الدوائر السوداء والبيضاء تتداخل بطريقة محزنة، إنها تمثل الزيف والحقيقة.. إن كل شىء حقيقى وزائف فى نفس الوقت.. لذلك فأنت ضائع لأنك لا تستطيع الاعتماد على شىء، من الواضح أن الفوضى هى كل شىء.. ألا تدرك ذلك.. لقد أدركته بنفسى وأصبحت حياتى هالكة وقاسية.. ماذا أفعل؟.. هل أفضى بهمومى لأحد أو لأطفالى؟..لا.. إننى يجب أن أحتفظ بهذا الفزع داخلى».

ولمدة ستة عشر عاماً كانت نانسى تموت فى صمت حتى أصبحت رئيسة جمعية (إياندس). مرت الأيام وهدأت نانسى وعندما تكلمت لأول مرة عن تجربة **إن. دى. اى.** التى خاضتها أثناء الولادة شعرت أنها تخلصت من عبء ثقيل، وهكذا نجحت فى ألا تكبت شعورها مرة أخرى فى الأعماق، وبدأ الشعور المرعب بالفوضى فى حياتها يتلاشى.. فهى ترقبه الآن من السطح لا من العمق ودون أن تتألم أو تنهار.. بل إنها تشارك حالياً رينج وزملاءه فى حماسهم الصادق لتحليل هذه الظاهرة.

يا لسخرية القدر !. لقد ملت نانسى بسرعة حالة الحماس التى يتعامل بها زملاؤها الجدد.. فبعد أن استطاعت أن تحدد اسماً لتجربتها المؤلمة منذ ٢٣ عاماً، اكتشفت أنهـا الوحيدة التى ذكرت أن تجربة إن . دى . اى . كانت سلبية.

يا للغرابة! إن رؤية الرئيسة الجديدة للجمعية لهذه التجربة مختلفة تماماً عما يراه الذين يعملون معها.. كيف ذلك؟!.

همست لى نانسى بعد أن أغلقت الباب أن أبحاث أصدقائى كانت غير محايدة، وأنهم بالصدفة تواجدوا على الأرض التى كانوا يبحثون عنها فجاءت قصصهم إيجابية لأنها لأشخاص أرادوا التحدث عن التجربة. وتساءلت: لماذا لا يحكى أصحاب التجارب السلبية عما حدث لهم؟.

– يا صغيرى إنك تجهل حقيقة الأمر.. إن هؤلاء العائدين الذين يقولون إنهم التقوا بالحب الكبير الشامل يجدون صعوبة كبرى عندما يتحدثون عن هذه التجربة، ومهمة إياندس هى فك عقدة ألسنتهم.. فما بالك بمن مروا بتجارب سلبية شهدوا فيها الفوضى الكاملة.. هؤلاء يكون أهون عليهم أن يبيعوا أرواحهم من خوض التجربة مرة أخرى، ولا يستطيع أى باحث أن يجعلهم يتحدثون عنها.

استطاعت نانسى بوش أن تكون نظرية عن تجربة إن. دى. اى السلبية وعن الآلام الرهيبة التى يعانيها الآلاف أو الملايين الذين مروا بهذه التجربة، وإذا كان معهد جالوب قد أحصى ثمانية ملايين تجربة إن. دى. آى، أغلبها إيجابية فلماذا لا يفترض وجود تجارب سلبية.. على الأقل لأن قانون التوازن يستلزم وجود السالب والموجب.

كيف يمكن أن نساعد هؤلاء التعساء الذين رأوا الفوضى وأصبحوا سجناء الوحدة والصمت؟.. هذا هو السؤال الوحيد الذى يهم الرئيسة الحالية لإياندس.

لقد لمست مناقشتها ما بداخلى.. حقاً لماذا لا نجد فى رحلة المحتضرين الجانب المظلم والكوابيس المخيفة.. لماذا دائما الهدوء والصفاء والحب؟.

ألا يذكر أيضاً «كتاب أهل التبت عن الموتى» ضوضاء عنيفة ووحوشاً مخيفة تحيط بالمحتضرين وكأنها حقيقة. ولكن هل يهدد هذا التناقض مجموع أعمال باحثى إياندس؟.. إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج لأسابيع عديدة.

التقيت بالصدفة بثلاث حالات سلبية أخرى.. تعرضت للأولى فى بداية الكتاب، وهى قصة الطبيب العجوز من روتردام المريض بالقلب والذى مات بعد شهور من المعاناة.. سقط رأسه على صدره وتوقف عن التنفس، فاعتقدت الممرضة أنه قد فارق الحياة وأغلقت عينيه، ولكنه صاح من تحت الغطاء: «قلم وورقة بسرعة».

وبإعادة قراءة ما كتبه الطبيب صدمنى التشابه بين قصته وقصة نانسى بوش، ففى الحالتين كانت هناك الحلقات المتداخلة التى تبدو كأن بها حياة، وتثير الرعب بحركتها المستمرة الساخرة.

نجح دكتور سمبسون فى الاحتفاظ بهدوئه لمدة أطول من نانسى بوش واستطاع أن يحلل تجربته، لقد رأى نفسه على هيئة مكعب وكل الحلقات المحيطة به تدعوه أن ينضم إليها وأن يغير «زواياه» ليصبح مثلها. هذه الدعوة هى أكثر ما أفزعه لأن التحول من شكل مكعب إلى حلقة إنما يعنى تخليه عن آدميته وعن كل ما يملك وما يعتقد فيه، فأخذ يصرخ كمجنون «لا تلمسونى» ويأمر هذه الأشكال بالابتعاد عنه، والغريب أن هذه الحلقات أطاعته وابتعدت عنه ولكنها استمرت فى حركتها الساخرة من حوله.

إنها تقريبا نفس تجربة نانسى بوش.. بدأ الطبيب فى التنفس ثم أفاق تماماً، وفى نفس اللحظة أضاء بداخله بريق جعله يدرك خطأه الفادح. إن هذه الأشكال الدائرية لم ترد به شراً، وإنما كان نوعا من المزاح القاسى، فشعر الطبيب بتأنيب ضميره لاعترافه بكراهية هذه الحلقات التى أخافته، وأخذ يحلم برؤيتها مرة ثانية.

بعد لقائي بنانسي بوش، روت لي امرأة من مينسوتا تجربة سلبية أخرى حدثت لها أثناء الولادة وبنفس السيناريو.. آلام فظيعة.. نزيف شديد، ثم اسودت الدنيا أمامها وبعدها حلقت للحظات في عالم مجهول مظلم، حتى ظهر أمامها شخصان طبيعيان ظاهرياً وأخذا يضحكان في سخرية، وهي تتساءل: لم يهزءان؟ ومن أين خرجا؟ ولماذا يضحكان بهذه الطريقة الوقحة؟ وأين رئيسهما؟.. وطلبت أن تذهب إلى المسئول عن هذا المكان لتخبره كم تشعر بالخزي لاقتيادها - على غير إرادتها - إلى مكان مجهول.

وعندما اشتد غضبها، أحست أن صرخاتها قد جذبت جمعاً من الناس أحاطوا بها، وأدركت أنها في منطقة مجهولة لها تماماً وسط أشخاص تلمع في عيونهم ابتسامة ساخرة مما سبب لها الكثير من الضيق.

ولكن الجزء السلبي من تجربة هذه السيدة انتهى عند هذا الحد، ثم اقترب منها شخص مُضيء وأخذ بيدها، فتبدد خوفها، وقادها نحو مدينة من النور، وباختصار عرفت هذه السيدة مرحلة خامسة مذهلة.

كان الازدواج في هذه التجربة بين السلبية والإيجابية إضافة هامة خاصة عندما حللت السيدة فيما بعد الرعب الذي شعرت به في بداية تجربتها، قالت: «انتهيت إلى أن الرعب الذي أحسست به هو ما يشعر به طفل صغير تحوطه مجموعة من الكبار يضحكون بشدة.. إنهم لا يريدون به شراً ويضحكون من قلوبهم ولكن نظراً لملابسهم الغريبة ولهجتهم غير الواضحة ومسلكهم الشاذ، فقد أخذ الطفل ضحكاتهم على محمل السخرية والقسوة ووقع على الأرض من الخوف بعد أن فقد توازنه ورباط جأشه.. هذا بالضبط ما شعرت به».

تنبهت فيما بعد أن عدداً كبيراً من حالات إن. دي. اي بها جزء مرعب ولكن الأغلبية كانوا مدفوعين بذكر الجانب المضيء في تجربتهم فمروا مرور الكرام على الجزء المؤلم، أما الذين كانت تجربتهم سلبية فقد فسروا الرعب

الذى انتابهم بأنه نتيجة السخرية القاسية والتهكم والاستهزاء غير المحتمل من شىء غامض يحيط بهم، ووصف الذين بلغت تجربتهم النهاية السعيدة هذا التهكم بأنه مزاح مسلى بعكس الآخرين.

قابلت الحالة الرابعة السلبية فى نيويورك، وكانت لشاب فى الخامسة والعشرين من عمره.. جاء يستمع إلىّ بينما كنت أتحدث عن البحث الذى أقوم به حول هذه الظاهرة، وظل الشاب صامتاً فى حين أخذ من حوله يبدون آراءهم عن الموت والحياة. وقام شاب فرنسى عابث بإخراج عدد خاص من مجلة «جالون» من حقيبته، وكان الغلاف يحمل العنوان الساخر «هل هناك حياة قبل الموت؟». وجمعتنى الصدفة ثانية بالشاب الأمريكى عندما كنا نتناول شراباً فى أحد البارات. وأخذ يتأملنى،ثم قال: «سمعت فى أحد الأمسيات عن البحث الذى تقوم به، إننى أعرف الموت.. وقد أجريت لى عشرات العمليات الجراحية منذ طفولتى، وذات يوم كنت على حافة الموت وعرفت ماهيته، ثم سكت وألحت عليه أن يكمل حديثه ولكنه قال:

– «لاأريد أن أتكلم والواقع أننى لم أتحدث لمخلوق من قبل عما حدث لى».

– لماذا؟.

– على كل حال إنه شىء مستحيل يعجز عنه الوصف، ولا أستطيع أن أتكلم عنه كما أننى تألمت كثيراً للتخلص من ذكرى هذه الواقعة.. إن مجرد سردها يجعلنى أعيشها مرة أخرى.. كل ما أريد أن أقوله إنك مخطىء.. إنه شىء رهيب أن تصل إلى حافة الموت.

لم يكن الإلحاح مجدياً معه مع أننى كنت أحترق من شدة الفضول.. فأخذنا نتحدث فى موضوعات مختلفة، وكان يتطرق بين الحين والآخر إلى تجربته، وفى النهاية فهمت أنه فى إحدى العمليات حدث له نزيف شديد كاد يقتله، وأحس بنفسه يسبح خارج جسده فى فضاء مظلم.. وفجأة استولت

عليه قوة مغناطيسية هائلة كأنه تيار كهربائى قوته ثلاثة آلاف فولت، وأخذت هذه القوة تهزه بجنون من جانب لآخر ومن أعلى لأسفل وبالعكس.

وسألته: «هل عانيت كثيراً؟».

– بالطبع انتابنى خوف شديد، لقد ظل هذا الرعب حبًا فى أعماقى وأصبح من الصعب علىَّ أن أصفه أو حتى أحاول ذلك.. إنك لا تستطيع أن تفهم.. إن هذه القوة المغناطيسية والهزات الجنونية كانت كحد الموس، وكأنى كنت أتقلب على هذا الحد.. إنه شىء فظيع.

– ولكن لماذا كان مخيفاً إلى هذا الحد؟

– كنت فى نفس الوقت ساكناً فى مكانى، وأيضا على وشك السقوط من كل جانب فى الفراغ.. إنه شىء غير مفهوم.

– وماذا فعلت إذاً؟.

– كنت أصارع من البداية إلى النهاية.

أوضح لى هذا اللقاء الكثير، وعندما رأيت نانسى بوش ثانية قلت لها إنها على حق وأنه يوجد فى العالم حالات **إن. دى.** آى سلبية ويجب البحث عن طريقة لمساعدة أصحابها التعساء.

جعلتنى التجارب السلبية الأربعة أفكر فى الخروج من الطوق الحديدى لأفكار رينج، ففى مرحلته الأولى (الخروج من الجسد) هناك طريق مسدود يمنع المختضر من الانتقال إلى المرحلة الثانية فيظل محصوراً فى مكانه يصارع كأنه يتمرن على الملاكمة.. يضرب الهدف فيرتد إليه ثانية، وكأن طاقة الكونداليني الشهيرة والعظيمة خرجت من مكمنها لتهاجم نفسها. إنه اكتشاف هام ولو أننى أعتقد أنه لا يتمشى مع نظرية المراحل الخمس التى وضعها رينج ومودى وسابوم.

«قد يكون الأمر كذلك نظريًا» صاحت نانسي بوش.. «ولكن ما يهمني أنا هو الناحية العلمية.. لذا أخشى أن يندفع رينج والآخرون نحو افتراضات وردية..»

وفي محاولة لإضفاء جو من المرح سألتها: «ألم تجدي من المحير والطريف أن تتوقف جميع التجارب السلبية عند التهكم والاستهزاء الذي يتحول إلى مزاح في قصص الحالات الإيجابية؟!»

نظرت إليّ في وجوم قائلة: «ربما لأنك تجدها شيئاً مسلياً».

وانفجرت ضاحكاً: لقد عاشت تجربتها المريرة أثناء الولادة عام ١٩٦١ وبعد ٢٣ سنة لا زالت ترتعش عند ذكرها دون أن تضحك، وهي تتخيل دوائر «الين واليانج» الساخرة.. إنها تجلس وخلفها رسومات كثيرة فكاهية، سبق ظهورها في الصحافة عن «إن. دي. اي» مثل مريض يخرج من جسده ويسخر من طبيبه المتجهم الذي يحاول إعادته للحياة..، ومريض آخر خارج جسمه يلهو كطفل صغير في سقف حجرة العمليات، والطبيب يصيح فيه أن يتخذ قراراً إما أن ينزل ويدخل في إطار جسده أو يعلن الطبيب موته.

ذكّرت نانسي بالرسومات المطبوعة خلف ظهرها فاستدارت قائلة: «هذا ما أفضله» مشيرة إلى لوحة تصور شخصين واقفين في طريق طويل تحت الثلوج في ظلام الليل، ويقول أحدهما للآخر: «من يقول أننا لسنا هنا كرهائن لدى شخص ما؟».

إن الباحثين في إياندس يحتاجون لنانسي بوش بشدة فهي أم لهؤلاء المتحمسين لكشف أسرار الموت.. أم مغامرة وقلقة منذ ولادتها الثانية، ولكنها أمٌ حقيقية وأمٌ حنون.

الخـــــاتمة

فرنسا تستيقظ

لو أن شخصاً فى أوروبا كتب عام ١٩٧٠ أن حركة واسعة ستظهر للكشف عن آلام المحتضرين، وأسرار الموت لكان موضع سخرية من الجميع، فأوروبا متأخرة بمعدل ١٥ عاماً فى هذا المجال عن أمريكا، حيث اكتسب هذا الموضوع أهمية كبرى وبلغ إجمالى الندوات والمؤتمرات التى تناولته هناك عام ١٩٨٠ ألف وخمسمائة جلسة رغم أن البداية كانت فى أواخر الستينات. أما فى فرنسا فقد بلغ عدد الجلسات والندوات حول أسرار الموت فى عام ١٩٨٥ عشرين ندوة فقط.

باختصار فإن الأطباء الأمريكيين يسعون دائماً للتطور.. ففى الثلاثينات كان لاكتشاف «البنسلين» دوى كبير، فقد ساعدت المضادات الحيوية حينئذ على إنقاذ حياة الملايين. واليوم استهوت المفردات الجديدة «النفس والعقل والروح» الأمريكيين ولكنهم لن يستطيعوا – بدراسة آلام المحتضرين– العودة للوراء فهى فقط وسيلة لتسكين آلامهم مثل البنسلين وإلقاء الضوء على هذه الحقيقة المرعبة من الداخل.

وتعتبر الممرضات ومساعدات التمريض الجيش الحقيقى فى حركة «الموت والاحتضار» فالعبء الأكبر يقع على عاتقهن.. فالممرضة أقرب للمحتضر من الطبيب فهى التى تغير ملابسه وتنظف جسده.. ويشعر المحتضر بكيفية معاملة جسدة الخامل، فهو أحوج للرعاية مثل الطفل الرضيع.. فالأم تتحسس طفلها وتربت عليه وتغسل جسمه، وتمنحه كل طاقتها من الحب والعطاء.. وكذلك المحتضر يحتاج إلى نفس العناية، ولكن بالطبع دون أن يكون ذلك مبعث سرور له.

والإحتكاك بين الممرضة والمحتضر يتم بصورة سريعة فهو يشعر بيدها الحانية عندما تمسك بذراعه. ويحس باهتمامها به وحرصها على التخفيف عنه. سواء عند إعطائه حقنة مسكنة أو عندما تعجل بتغيير ملابسه بعد التبول، وحتى إذا لم يستطع المحتضر أن يبدى امتنانه للرعاية الحانية بسبب تدهور حالته. فإن كلمة شكر أو ابتسامة كفيلة بالتعبير عن أحاسيسه.

وتأتى الرعاية النفسية بعد الاهتمام الجسدى للمحتضر.. إن كلمة يملؤها الأمل قد تبعث فيه الحياة، بينما وجود شخص قلق ومكتئب إلى جواره قد يضاعف آلامه، بل إن وجود زوج كاره أو حاقد بجانب زوجته أثناء مرضها الشديد قد يعجل بموتها حتى دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ولكن هل يمكن الاتصال بالمريض أثناء الغيبوبة؟.. يبدو ذلك بل إن الحديث معه يمكن أن يساعده على الشفاء أو يقضى عليه، فهناك نوع من الاتصال العاطفى عن بعد يتم بين القلوب.

وقد أدركت الممرضات والراهبات ذلك منذ زمن بعيد.

فبعد العناية بالمريض يصلين من أجله، ويتصلن هكذا بأرواح الغائبين عن الوعى دون أن يعرفن المنطق العلمى وراء هذا الاتصال. ولكن الأطباء الكبار لايؤمنون بذلك، وعادة ما يقولون للممرضات والراهبات.. «أكملن صلاتكن لإنقاذ المحتضرين.. افعلن ما تشأن ولكن لا تعتقدن فى شىء». وهكذا تجد الممرضات أنفسهن وحيدات فى مواجهة المحتضرين فيواصلن جهودهن المتواضعة.

لقد زاد عدد من يموتون فى المستشفيات (خصوصاً تلك المجهزة لاستقبال الحالات الميئوس منها)، ومع الليالى الطويلة التى تمضيها الممرضات إلى جانب المحتضرين تصاب بعضهن خاصة صغار السن بالكوابيس الرهيبة ولكن ذلك يقل كلما زادت الخبرة. وتكتشفن أن بعض المرضى سهل التعامل معهم وآخرون يصعب تحملهم. فالمراحل النفسية للاحتضار معقدة وخادعة!

كانت دراسة الموت والاحتضار بالنسبة للمرضات العاملات فى مجال العناية المركزة تمثل بداية جديدة، فمن بين الممرضات اللاتى سألتهن، قالت جميع من تابعن أبحاث إليزابيث كوبلر – روس أنهن استفدن كثيراً.. فقد عقدت إيكر الكثير من الندوات فى مدارس التمريض الأمريكية وفى كندا وإنجلترا وألمانيا وسويسرا ونيوزيلاندا.. ووضعت منظمة «شانتى نيلاية» برنامجاً مطوراً لتدريب المهتمين بالعمل على تمريض المحتضرين. كان عدد الممرضات والمساعدات يمثل ثلث من يحضرون ندوات «الحياة والموت» وهكذا تطورت تدريجيا سبل التخفيف من آلام المحتضرين حتى بغير اللجوء إلى المهدئات.

وتذهب كثير من الممرضات إلى أبعد من ذلك.. فنادراً ما نجد بينهن وخاصة المتقدمات فى السن من لم تسمع من قبل «برحلات المحتضرين» وكن فى الأغلب يتلعثمن عندما يسألهن العائدون فى رجاء وقلق: «ألا تصدقننى؟» أما الآن فقد أصبح الأمر يسيراً بعدما تعلمت الممرضات كيفية مساعدة المحتضرين عند لقاء الموت، وأصبح كتاب مودى عن تجارب إن. دى. أى يُدَرَس فى بعض مدارس التمريض الأمريكية.

وفى ندوة «الحياة والموت» دهشت لرؤية تغيرات جذرية فى فكر الممرضات.. لقد طالبن ليس فقط بالإقلال من العقاقير والمسكنات بل أيضاً بالسماح لهن بحرية التعامل مع المحتضرين والتحاور معهم، ولقد ذهبن إلى أبعد من ذلك بكثير وطالبن باحترام جثث الموتى والمحافظة عليها مدة يومين أو ثلاثة بعد الوفاة يسمح خلالها لهن باستكمال الحوار مع هؤلاء الموتى!.

كان حديثهن غير مفهوم.. فقد نستطيع تقبل فكرة الحديث مع من هم فى غيبوبة.. أما التحدث إلى الموتى فشىء يفوق تصور العقل، وتدافع الممرضات عن رأيهن مؤكدات أن كتاب أهل التبت عن الموتى والكتب المصرية القديمة، وكتب المسيحية فى القرون الوسطى، وهى ثقافات شائعة.. ترتبط بتقاليد مماثلة.

وقد ظهرت مؤخراً كتب أجنبية كثيرة عن مصاحبة المحتضرين فى أيامهم الأخيرة، لعل أهمها هو الكتاب الأمريكى عن الموتى والذى قام فيه عدد من الأطباء فى نيفادا، بترجمة كتاب «أهل التبت عن الموتى» بلغة حديثة، يتضمن الجزء الأول من هذا الكتاب كيفية الانفصال الروحانى عن الجسد والتى يمكن للشخص التدرب عليها يوميا حتى وهو فى كامل صحته.. إنها مجموعة من تمرينات التنفس والتأمل والنظر والاستماع ومحاولة الخروج من الجسد.

أما الجزء الثانى فهو دليل لما يقرأ للموتى خلال الأسابيع السبع التالية للوفاة، وفترة السبع أسابيع هذه هى – حسب عقائدهم – فترة الرحلة إلى مملكة الرحمة الخالصة حيث يرى الموتى النور المبهر ويذوبون فيه، وتقول التقاليد: إن الميت يتألم وهو يقاوم العودة إلى جسده ويستمر ذلك حتى اليوم التاسع والأربعين.. «مدة السبع أسابيع» أو «الحجرة التاسعة والأربعين» كما يطلق عليها قدماء المصريين. خلال هذه المدة تحاول الروح الهروب من العودة إلى الجسد وذلك عن طريق الاتصال بالملاك الحارس لهذه الحجرة «حجرة النهار» وطلب مساعدته.

إن خلاصة الكتاب الأمريكى توجد فى المقدمة التى كتبها «جون ليلى» – صديق الدرافيل الشهير – حيث يقول: «إن الغاية من الحياة هى التمييز بين الأحداث الكبيرة والصغيرة، فالأحداث الكبيرة هى اللحظات العظيمة فى حياتك مثل اللقاءات الهامة والاختيارات والقرارات الحاسمة والانتصارات أو الهزائم الكبيرة. هذه الأحداث لم تقررها أنت، ولذلك فهى ليست محل زهو أو خجل، أما الأحداث الصغيرة مثل الانتصارات أو الهزائم الصغيرة واللقاءات العادية فأنت مسئول عنها وهى التى يمكن أن تنزع من عينيك النوم أو تدفعك نحو النور».

إننا نحتاج إلى دليل سنوى ضخم يضم الجمعيات الإنجليزية. التى تهتم بالمحتضرين مثل مؤسسة إستيفن ليفن فى نيومكسيكو، ودار سان كرستوفر

لاستقبال المحتضرين فى لندن، هذه الجمعيات بمختلف اتجاهاتها ووسائلها تهدف إلى الموت الهادئ، أو بمعنى آخر جعل لحظة الموت سهلة وغير مؤلمة وهو هدف يجب أن يتكاتف الناس جميعاً لتحقيقه بمساعدة بعضهم البعض.

وتهيئة الموت الهادئ ليس معناه دفع الشخص للانتحار.. فالانتحار مرفوض ومُحرَم، ولكنه قد يبدو للبعض – وخاصة الذين يعرفون معنى المراحل النفسية للاحتضار وإمكانية تخلص المحتضر من سلبيته قبل الموت – أنه مرحلة وسيطة قبل الموت، إن الشخص المسن أو شديد المرض الذى لم يعد قادراً على تحمل الآلام. قد يرفض جسده الموت لأنه يريد أن ينجز شيئاً قبل وفاته – كما تقول إيكر – لذلك فإن مساعدة أحد المتمرسين قد تيسر له التخلص من العبء النفسى فى داخله حتى يموت فى هدوء».

انتهت دراستى عن الموت والاحتضار بالولايات المتحدة فى السابع من فبراير ١٩٨٤، وعدت يوم ٨ فبراير إلى باريس. وفى يوم ٩ فبراير ظهر فى جريدة «لوموند» مقال بعنوان «مرافقة المحتضرين» كتبته طبيبتان فرنسيتان هما د. ميشيل سالامانى، ورينيه سيباج لانويه. تعمل الأولى رئيسة قسم التخدير بمستشفى «سان سيمون» بباريس، والأخرى بمستشفى «بول – بروس»، وبعد أيام علمت بإنشاء قسم جديد لمصاحبة المحتضرين ورعايتهم فى مستشفى «كونياك جاى» وذهبت إلى هناك وتعرفت بالدكتورة «آن. دى. بونتافيس».. وهى ممرضة بدأت دراسة الطب فى سن الثامنة والثلاثين، لأن المستشفى كانت تمنعها من الاهتمام بالمحتضرين، وقد تلقت تدريبها على يدى «إيكر».

وجاءنى من مارسيليا فيما بعد أن الدكتورة «فرانسواز بروزان – لباس» أعدت رسالة دكتوراة عن «الموت وصورته لدى المحتضر».. وبعدها ظهر كتاب آخر بعنوان «مصاحبة المحتضرين فى المستشفى»، وهو مجموعة نصائح طبية وبعض رؤى أهل التبت.

وقد عملت مؤلفته الطبيبة الشابة «بلاندين بيث» مع الأم تريزا فى الهند، ومع الطبيبات «سيسلى سوندرز» فى لندن و«رينيه سياج»، و«ميشيل سالامانيه».

كانت مفاجأة بالنسبة لى أن تشارك أوربا وفرنسا فى هذا الاهتمام وأن تكون الريادة فيه للنساء.. ولا يمنع ذلك من وجود بعض الرجال أذكر منهم على سبيل المثال د. «زافيه فنترينى» وعالم النفس «ليوماتوس».

وقد أرسل لى بعض الأصدقاء كتيباً عن «حركة الأمل والتوافق» ذكرتنى على الفور بما يحدث فى «شانتى نيلاية». كما حدثنى أحدهم عن انتشار هذا التخصص العلمى الجديد فى جميع أرجاء فرنسا.

إننى لا أرى ما يمنع تطور هذا المجال فى فرنسا.. فالفرنسيون لا يريدون أن يموتوا بغباء وفى ظل هذه الخدمة الجديدة. تختفى رهبة الموت وتصبح رحلة المحتضر إلى العالم الآخر يسيرة.

تعليـــق

والآن عزيزى القارىء، وقد قرأت هذا الكتاب لعلك تتساءل عن هذه الرؤى التى مر بها كل من خاض تجربة الموت الظاهرى، ومدى صحتها وكيفية تفسيرها.

ورغم تضارب الآراء واختلاف وجهات النظر فلابد أن نقبل إمكانية حدوث مثل هذه التجربة خصوصاً بعد إجماع ملايين الأشخاص على وصف محدد لها.

ومن الناحية العلمية لا يوجد تفسير لهذه الظاهرة ولكن على سبيل المحاولة الشخصية، فإنى أعتقد أن نقص كمية الدم والأوكسجين التى تصل إلى المخ أثناء الغيبوبة تتسبب فى وقف وظائف بعض المراكز العليا فى المخ، مما قد يفسر حدوث هذه الرؤى فى غيبة الوعى والعقل معاً.

ومن البديهى أن من رأى طاقة النور المبهر لابد أن تهدأ نفسه. ويقل خوفه من آلام الاحتضار، ويستعد لاستقبال الموت بنفس آمنة، وينعكس ذلك بلا شك على تصرفاته فى الحياة، وقد ينقلب إلى إنسان آخر يحسن تصرفاته ومعاملاته مع الناس ويحب لهم الخير.

إن المرء فى لحظات الاحتضار يحتاج إلى كل المحاولات الممكنة لتخفيف سكرات الموت عنه، حتى تفيض روحه فى هدوء عندما ينتهى الأجل.

أما الروح فسرها عند الله سبحانه وتعالى:

﴿ ويســألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العـلم إلا قليلا ﴾

صدق الله العظيم